المرحلة التاسعة: ٣٣٠ ـ ٦٤ق.م.
توحيد العالم الاغريقي ـ الايجي وتوسعه.
أمبراطورية الاسكندر. الملكيات الهللينيستية.

إن أغارقة ـ إيجي العام ٣٣٣، ورثة «شعوب البحر والشمال»، مكررين هجمات هذه الشعوب التي إكتسحت آسيا الصغرى والشرق المتوسطي العام ١٢٠٠، غزوا عالم الشرق الأدنى بعدما قام جبليون من مقدونيا بتوحيدهم وقيادتهم، وهدموا دوله وبنوا على أنقاضها أمبراطورية الإسكندر الكبير الإغريقية الشرقية والممالك الهللينيستية التي خلفتها.

وقد إستعاض الأغارقة المقدونيون عن الوحدة السياسية الشرقية التي أسسها الفرس الأخمينيديون بوحدة ثقافية مبنية على حضارة جديدة أو مجددة: الحضارة الهللينيستية أو الإغريقية ـ الشرقية.

A. أمبراطورية الاسكندر الكبير اليونانية الشرقية

I. اليونان والهللينية حتى توسع الاسكندر ـ صورة تاريخية

١ ـ العالم الإغريقي ـ الإيجي: البلاد والعرق

أ ـ البلاد اليونانية ـ الايجية

يحتل العالم الإيجي في المثلث الواسع الذي ترسمه مجموعة بلدان الشرق الأوسط الزاوية الشمالية الغربية منه، في حين تحتل إيران زاويته الشمالية الشرقية ومصر زاويته الجنوبية، وهذه العوالم الثلاثة تمثل تحديداً مواقع حدودية أو مراكز إنتقال بمثابة همزات وصل.

لكن وفي حين أن إيران الآسيوية ومصر الأفريقية هما على الأغلب موجهتان نحو الشرق المتوسطي فإن البلاد الإيجية هي بلاد هجينة أو مشتركة تنتمي إلى الشرق والغرب في آن معاً ومن غير أن تكون حكراً على أحدهما دون الآخر. «فليس هناك أي خط فاصل دقيق بين الشرق والغرب، بين آسيا وأوروبا، كما لا يمكن للمؤرخ أو الجغرافي أن يفصل بينهما».

ب ـ الأوضاع الجغرافية في البلاد اليونانية ـ الإيجية وتأثيرها على السكان

إن هؤلاء الذين يدعمون الحجة القائلة بأن التاريخ هو نتيجة الأوضاع الجغرافية ينهلون من مثل اليونان أشد حججهم إقناعاً.

فالوسط الحقيقي لليونان القديمة هو بحر إيجه. إذ يضم العالم اليوناني ـ الإيجي في الواقع الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة البلقانية وبحر إيجه والجزر الملحقة به، وأخيراً سواحل آسيا الصغرى. فالبحر أكثر مما هي الأرض هو ما يصنع وحدة هذه المنطقة الخاصة القارية والبحرية معاً والأوروبية والآسيوية على السواء.

ففي هذا البلد البرمائي الذي تشكل الجبال معظم أراضيه (نحو ثمانية أعشار منها) فالسهول الكبرى نادرة. والجبال المكسوة بأراض قابلة للحراثة وبالمراعي تؤمن الحرية لسكانها. فيما البحر يقطع في الأراضي التي يغمرها جزراً وأشباه جزر وبرازخ ورؤوساً جبلية مشكلاً بهذا خط سواحل بالغ الإتساع يضم في طياته ما لا يحصى من الموانىء المضيافة.

ناهيك بأن تشابه المناخ هو فريد أيضاً. فهناك شتاء هاطل أكثر مما هو بارد حقاً، وربيع وصيف يشعان نوراً ساطعاً ونقياً ويتميزان بحرارة مرتفعة وخريف عواصف وأمطار غزيرة مما يجعل حياة السكان أكثر بساطة وإعتدالاً. فالمأكل والملبس والمأوى مؤمنة جميعها بأخفض كلفة.

إن هذا التكوين الطبيعي للبلاد قد حدد حياة اليونانيين ـ الإيجيين وطبيعة حضارتهم. وقد حتم فقر الأرض على اليوناني أن يعمل من باب الحاجة، فيما جعلت منه تربية المواشي راعياً وبدوياً. كما أن صيد السمك والملاحة عملا منه بحاراً وتاجراً وقرصاناً. وقد شكلت التجزئة التي لا حد لها للمنطقة أحد الأسباب العميقة لخصوصية سكانها.

إن الصراع الذي لا يتوقف ضد العوائق الطبيعية على أنواعها جعل من اليونانيين أقواماً أشد صلابة وأكثر خشونة من سواهم وجعل فكرهم أكثر تحرراً. إن التوازن العقلي هو الميزة الأساسية لعلم النفس الهلليني. وقد أضاف الإغريق إلى محصول حقولهم المجدبة والتي تفتقر إلى الري موارد التجارة والفكر «محولين بهذه الطريقة شبه جزيرتهم الخشنة إلى إحدى أغنى المناطق على الدوام في العالم» (ر. كوهين).

ج ـ الإسم والعرق

يشير إسم آخيين وآخية إلى شعوب وبلاد اليونان المقبلة إنطلاقاً من العام ١٤٠٠ وهو العصر الذي سيطر فيه الآخيون، وهم هندو ـ أوروبيون جاؤوا من الشمال، على السكان البلاسجة الأصليين وأحلوا هيمنتهم السياسية بدل هيمنة الكريتيين.

وأما في المرحلة التاريخية التي تلت عصر هوميروس فقد إستبدلت كلمتا آخيين وآخية بكلمتي هللينيين وهلاد تيمناً بقبيلة نسيية جاءت من إبيروس وقد تكون

فرضت سيادتها على البلاد. وأما كلمة إغريقي وإغريق، وعلى غرار الأسماء السابقة، فهما تعبيران أكثر عرقية منها جغرافية. وهذان التعبيران، اللذان لم يعرفا إلا منذ عهد الرومان، مشتقان أيضاً من إسم قبيلة تعود في جذورها إلى إبيروس.

وأما الوسط العرقي الإيجي فهو مكوّن منذ الأصول من مزيج مستقر هم البلاسجة ومؤلف من متوسطيين وآسيانيين أصليين تحركهم وتجددهم بإستمرار، وبدءاً من العام ٢٠٠٠، الهجرات الشمالية ـ والهندو ـ أوروبية. وان الأخيين والدوريين والإيوليين والإيونيين والهللينيين والإغريق الخ... الذين وصلوا تباعاً أو سوية إنصهروا في بوتقة السكان الأصليين.

٢ ـ اليونان والحضارة الهللينية

أ ـ الهللينية

إن تسمية هللينية تشمل كل الحضارة اليونانية. وهي تنطبق أيضاً وبشكل أخص على إنتشار العرق والأفكار الهللينية خارج اليونان، وعلى تلك الحضارة المختلطة، ذات المنشأ اليوناني، التي إمتدت بدءاً من القرن الرابع إلى جميع أنحاء الحوض الشرقي من البحر المتوسط. إن الممالك الهللينيستية التي ستقوم في الشرق الأدنى ستعدل في ذلك الجزء من العالم مفهوم الحياة نفسه.

وفي هذا التطور كان للإسكندر الكبير دور حاسم، لأنه بذل جهده لدمج الشرق بالغرب، اليونانيين مع المصريين، والفينيقيين والسوريين والبابليين والفرس والبختريين. فلقد كان دور الممالك اليونانية ـ المصرية واليونانية ـ السورية عظيماً في العالم المتوسطي، لأنها كانت البوتقة التي مهدت للحضارة الإسكندرية المتألقة والدين المسيحي والعلوم الحديثة. وغصّت سهول سورية وبلاد ما بين النهرين بالمدن التي جعلت الشعوب غير المستقرين والمشتتين يستقرون. وشهدت البلدان التي أصابها هذا التغيير إزدهاراً كبيراً في ثرواتها.

إن الهللينية لم تَزُل بزوال الممالك الهللينيستية بل إستمرت تحت السيطرة الرومانية والبيزنطية. فالثقافة الرومانية أصلاً ثقافة يونانية. وقد إضطرت روما لإنجاز تربيتها الفكرية والخلقية إلى الدخول في مدرسة اليونان. والرومان أنفسهم كانوا السبّاقين إلى الإقرار بهذه الحقيقة والإعتداد بها. وهكذا إذن وخلال نحو ألف

عام (من العام ٦٤ ق.م. إلى العام ٦٤٠ ب.م.) سادت الحضارة الهللينيستية بلا منازع على مدن الشرق الأدنى.

ب ـ أهمية التاريخ اليوناني

ليس تاريخ اليونان القديمة إذن تاريخاً منفصلاً لأمة ما، بل هو على العكس فصل من تاريخ شعوب حوض البحر المتوسط الشرقي الشامل، وفي الوقت نفسه، هـو الفصل الأول من تاريخ الحضارة الأوروبية. وإليه ترقى الحياة الفكرية والعلم والفلسفة في العالم الغربي القديم وأوروبا الحديثة. إن مدن هيلاد الحرة، بانجازها أحد أرقى أشكال التنظيم السياسي، إنما أعلنت في وجه الملكيات المستبدة في الشرق القديم مبادىء الدولة الحديثة وحكم العقل عوض الخرافات الدينية. وسنراها تنتشر على سواحل العالم الشرقي الذي أبكرت بتطبيعه بالفكر الهلليني.

ج ـ مراحل التاريخ اليوناني

نلاحظ ثلاث مراحل كبرى في تاريخ اليونان القديمة وهي:

١ ـ المرحلة القديمة من الأصول حتى نهاية الحروب المادية (٤٦٠).

٢ ـ المرحلة الكلاسيكية في القرنين الخامس والرابع، أوج الحضارة اليونانية.

٣ ـ المرحلة الهللينيستية من الإسكندر الكبير حتى الفتح الروماني. وهذه المرحلة الأخيرة التي هي مرحلة إمتداد العرق الهللييني وحضارته خارج اليونان هي التي تعني الشرق الأدنى بوجه خاص. لكن بما أن المرحلتين السابقتين مهّدتا وأدتا إلى مجيء المرحلة الهللينيستية، لذا حتى يتسنى لنا إستيعاب الأحداث التي ستلي لا بد أن نلمح في نبذة مقتضبة إلى الخطوط الكبرى في تاريخ اليونان، البلد الأم خلال الأزمنة الغابرة.

٣ ـ اليونان القديمة حتى العام ٤٦٠

أ ـ الأمبراطورية الإيجية التي أسستها جزيرة كريت

إن أول دولة إيجية معروفة هي، كما رأينا، مملكة جزيرة كريت. وهذه الدولة محض البحرية عرفت إزدهاراً غنياً وحضارة متألقة راوح أوجها بين العام ١٧٥٠ والعام ١٤٥٠ق.م.

ب ـ الأمبراطورية الآخية ـ الإيجية. الآخيون أول أسرة إغريقية

إن الآخيين وهم فرع من الأرومة الهندو ـ أوروبية والذين دخلوا بلاد اليونان حوالي العام ١٤٠٠ هم أول شعب تكلم اللغة اليونانية في البلاد الإيجية. وقد تعلم هؤلاء اليونانيون الأولون على يد الكريتيين أسرار الصناعة والعدانة والملاحة والتجارة.

ومن إتصال الآخيين والبلاسجة والكريتيين واختلاطهم، إنبثقت في العالم الإيجي حضارة جديدة هي الحضارة الآخية أو المسينية. إن الآخيين، وقد تعززوا بوصول الإيوليين والإيونيين وهي قبائل هندو ـ أوروبية جديدة ووثيقة القربى بهم، فإنهم عملوا على تقويض القوة الكريتية التي كانت على شفير الإنهيار وحملوا بدورهم ما بين العام ١٤٠٠ والعام ١٢٠٠ لواء التفوق في العالم الإيجي.

ج ـ الدوريون ثاني أسرة إغريقية

وحوالي العام ١٢٠٠، وبعد انتصارهم بقليل على مدينة طروادة، تغلب على الآخيين وطردهم إخوان لهم في العرق هم الدوريون، ثاني أسرة إغريقية. إن الدوريين، وقد أتوا من مناطق أكثر برودة ووحشية، لم يكونوا مهيأين ليصبحوا تجاراً أو بحارة. ولذا ظلوا طويلاً على حالهم، أي محاربين بدائيين.

على أن الآخيين، الذين طردهم الدوريون من اليونان، تجمعوا وانقضوا براً وبحراً على آسيا الصغرى وسورية ومصر. ولقد سبق ورأينا نتائج تلك الهجرة الهائلة التي حملت معها العديد من القبائل الآسيانية والتي أطلق عليها المصريون «غزوة شعوب البحر والشمال».

د ـ استيطان سواحل آسيا الصغرى

كان رد الفعل على تلك الهجرات بالنسبة الى اليونان حصول حركة استيطان كبرى حيث راح الآخيون والإيونيون والإيوليون المطرودون من وطنهم ينشئون المدن الهللينية على ساحل آسيا الصغرى. وما لبثت أن تألقت نحو إثنتي عشرة مدينة ببهاء. وبرزت في وجه اليونان الأوروبية يونان أخرى آسيوية، حيث سيؤدي الانصهار بين اليونانيين المهاجرين والمتوسطين والآسيانيين المحليين، عما قريب الى أفضل النتائج.

هـ ـ إنطلاقة المدن الهللينية في آسيا الصغرى

إن الحضارة الأخية، وقد انتقلت الى أرض جديدة وأخصبت بتأثيرات غريبة، فقد تطورت بسرعة على الساحل الأسيوي. وإنها لظاهرة طبيعية نجدها اليوم ماثلة في الولايات المتحدة الأميركية كما نجدها في قرطاجة العصور الغابرة.

وبين القرن الثامن والقرن الخامس، باتت تلك المستوطنات الهللينية التي كانت تعيش من مواردها الخاصة تمتلك مدناً غنية ومزدهرة أقوى وأكثر اكتظاظاً سكانياً من اسبارطة أو أثينا أو طيبة. وقد أظهرت هذه المدن الزاخمة والجديدة وجهاً متفوقاً من وجوه الحضارة، كالقوانين المدونة التي يتساوى الجميع أمامها والهندسة المعمارية والمدارس الشعرية والمذاهب الفلسفية الأولى والقصائد الهوميرية، وجميعها ظهر في اليونان الآسيوية. كما تمت تجربة كل أشكال الحكم فيها: أرستوقراطي، ديموقراطي، ديماغوجي، سلطوي.

و ـ يقظة أثينا وإسبارطة

إن هذه الحمية التي دبّت في المستعمرات اليونانية الفتية سوف تصل أخيراً الى المدن الأم في اليونان الأوروبية. وفي حوالي العام ٦٠٠ كانت أثينا مدينة ـ دولة تسودها الديمقراطية، على طرف نقيض من مدينة إسبارطة الدولة الأكثر نظاماً في العالم القديم. وكانت هاتان المدينتان القطبان تمثلان النوعين التقليديين والمتعارضين في العبقرية اليونانية واللذين سيتمحور حولهما تطور اليونان السياسي ابتداء من منتصف القرن السابع وحتى منتصف القرن الرابع. وان الحروب المادية، التي آلت الى انتصار اليونانيين الأوروبيين وتحرر اليونانيين الآسيويين، ستضع كلاً من أثينا واسبارطة في مركز الصدارة.

ز ـ تأثير الثقافة الشرقية

وخلال هذه المرحلة الأولى من التاريخ الهللينى والتي تمتد من الأصول وحتى نهاية الحروب المادية فإن الحضارة الإغريقية قد نهلت من أعماق حضارات الشرق القديم. فقد كان البحارة الفينيقيون هم الذين نقلوا الى الكريتيين والآخيين والدوريين ثم الهللينيين مناعم حضارة الشرق السامي ـ الفرعوني. إن ذكرى التأثير الفينيقي في اليونان يمكن استشفافها في القصائد الهوميرية، وهي محفوظة في سلسلة من الأساطير اليونانية القديمة.

٤ ـ اليونان الكلاسيكية في القرنين الخامس والرابع . أوج الحضارة الهللينية

يشكل القرنان الخامس والرابع ذروة الحضارة الهللينية. ففي هذين القرنين أعطى العرق الهلليني، الذي بلغ ذروة تطوره، أعظم روائعه.

فخلال هذين القرنين عاش ديموقريطس وسقراط وأبوقراط وبندار وإيشيل وصوفوكل وأوروبيد وأريستوفان وهيرودوت وتوسيديد وبركليس وأفلاطون وأرسطو وإيشين وليكورج وديموستين وثيوفراست وميناندر وكزينوفون. ولم يسبق أن قدم شعب ما في أي عهد كوكبة أكبر وأشهر من هؤلاء الرجال العظام.

«فالبشرية لم تتوصل في أي مكان من العالم، وخلال فترة زمنية محدودة، من انجاب هذه الوفرة من المواهب المتنوعة ولا هذا العدد من الروائع الفريدة التي تشارف الكمال. فالفكر بكل وجوهه بدا هناك خلاّقاً أكثر من أي مكان آخر... كما أن ذكاء نفّاذاً... سمح لمفكريها بأن يطرحوا وان لم يحلوا كل المسائل الكبرى التي تراود الفكر البشري. وأخيراً ففي اليونان أيضاً وللمرة الأولى أعلن عدد من المبادىء التي نجحت شيئاً فشيئاً في تسكين الغرائز العنيفة والاعداد لانسانية أفضل. إن تلك العطاءات الخيرة لا يمكن الجدال فيها وهي تعطي اليونان القديمة الحق بأن تكون معلمة العالم الحديث الأساسية».[1]

كما أن الفلسفة عند اليونان تكوّنت كعلم قائم بذاته ومميز في الوقت نفسه عن الدين والعلوم الوضعية. ففلسفة العهود اللاحقة كفلسفة العصور الحديثة وثيقة الصلة بالمفكرين الأغارقة.

أ ـ أثينا «مدرسة اليونان»

إن أثينا، التي تبوأت سدّة الصدارة بين المدن الاغريقية بفضل إسهامها الراجح في الدفاع القومي خلال الحروب المادية، قد غدت مركز الحياة الهللينية ورفعت الى مرتبة الكمال كل نتاج النبوغ الاغريقي. وظلت طوال قرنين تقريباً نبراس اليونان كلها وعاصمتها الدينية والفنية والفكرية. إنها «مدرسة اليونان» والمبدعة الحقيقية «للمعجزة اليونانية».

1 M. Croiset, *La civilisation de la Grèce antique*, p. 253, 254.

ب ـ الهللينية والثقافة الشرقية

إن الحضارة التقليدية التي عرفتها اليونان في هذه المرحلة الثانية والمتألقة من تطورها قد انفصلت بوضوح عن الثقافة الشرقية. فاليونانيون، المُجلّون في فروع المعرفة البشرية، راحوا يسائلون العقل عن ألغاز الطبيعة وغوامضها، في حين كان الشرق لا يزال في مرحلة السحر والشعوذة والدين والايمان. وفي هذا المجال المزدوج فقد كان اليونانيون واليهود القدامى يمثلون القطبين المتناقضين. ففي حين لم تعد الالياذة والأوذيسة تمثلان «ينابيع كل الحقائق» ومنابع كل العلوم في عرف اليونانيين كانت الحضارة والتاريخ في عرف اليهود، الذين كانوا ما يزالون يشكلون مجموعة دينية ودولة ثيوقراطية، هما حضارة وتاريخ إيمانهم.

«فأثينا وأورشليم، والحق يقال، تجسد كل منهما تماماً موقفي الفكر المتناقضين: أحدهما يلجأ الى العقل وحده لجلاء غوامض العالم والحياة والانسان، والآخر يسعى للحصول على تلك الأجوبة بالتماسه طريق الايمان. ففي القرن الخامس قبل الميلاد كانت كل من هاتين التجربتين تعمل على حدة وبمعزل عن الأخرى متجاهلتين تماماً بعضهما بعضاً. وسيحين اليوم الذي تتجابهان فيه مع فاجعة المكابيين».[2]

ج ـ تنافس أثينا وإسبارطة

وفضلاً عن تفوقها في ميدان الثقافة كانت أثينا عاصمة أمبراطورية بحرية كبيرة. وخلال سنوات عديدة قام تنافس حاد بين أثينا واسبارطة وتجلى، كما رأينا، بنزاعات وحروب يؤججها ذهب ودسائس الفرس مما كان ينعكس تجابهاً بين العاصمتين الاغريقيتين. وقد فعلت النجاحات والانتكاسات المتعاقبة بينهما فعلها في إضعاف العاصمتين.

وحوالي العام ٣٧٠ دفع انطلاق طيبة الى طموح الهيمنة ولكنها لم تفلح برغم انتصارها على الأثينيين والاسبارطيين معاً. وهكذا استنزفت أثينا واسبارطة وطيبة كل واحدة بدورها وتفشت العادات المتخنثة في جميع المدن اليونانية. وحوالي هذا الوقت ظهرت قوة جديدة هي مقدونيا التي ستصبح اليونان المنقسمة والضعيفة لقمة سائغة لها.

2 Daniel-Rops, *Histoire sainte, le peuple de la Bible*, p. 360.

٥ ـ اليونان المقدونية

أ ـ مقدونيا

إن مقدونيا هي بلاد جبال وغابات وأودية جميلة وتقع شمال شبه الجزيرة الهللينية وكانت في القرن الخامس أشبه بدولة، شعبها من الفلاحين الخشني المظهر والمزارعين ومربي الخيول العاملين في خدمة أرستوقراطية محاربة. فالمقدونيون هم، على الأرجح، ينتمون الى أرومة سائر الهللينيين ولكنهم امتزجوا بنسبة أكبر مع العناصر الآسيانية الأصلية التي بقيت بمنأى عن كل تأثير متوسطي. إن اليونانيين لا يعتبرون هؤلاء المقدونيين إخوة لهم، وقد صنفهم ديموستين في عداد الشعوب البربرية مستثنياً ملوكهم الوراثيين على أن فيهم مسحة هللينية. «فمقدونيا وهي منبسط عند سفوح الجبال الهللينية القديمة» كانت بالنسبة الى اليونان خزاناً لا ينضب من القوى الشابة والمحاربة وغير المنضبطة والمرهوبة. فهذا البلد البدائي هو الذي سيوحد الإغريق تحت حكم ملوكه ويقودهم الى غزو الشرق الأدنى.

ب ـ فيليب الثاني المقدوني موحد اليونان

فيليب الثاني (٣٦٠ ـ ٣٣٦) ـ هو ملك مقدونيا وقد عرفت شخصيته وجهين وجه الجندي المجلي ووجه رجل الدولة من الطراز الأول. كان طموحاً وحازماً وبارعاً وشجاعاً وكان داهية لا يردعه رادع. وخلال سنوات عديدة جهز آلة حرب مدهشة وكوّن جيشاً قومياً، في حين كانت سائر الجيوش حتى ذلك الحين من المرتزقة. ويعود تفوق هذا الجيش بخاصة الى تنظيم الكتائب فيه وأهمية الخيّالة المدرعة التي ظلت لا تُقهر حتى مجيء الرومان.

إن مقدونيا، التي عززتها انتصارات ملكها وسياسته، غدت حوالي العام ٣٤٠ ق.م. الدولة الأقوى في شبه الجزيرة الهللينية. وبدأت المدن اليونانية تخشى على حرياتها، وكانت أثينا أشدها قلقاً بحكم كونها أكثر تهديداً حيث كان خطيبها المفوه ديموستين روحها ومحرك وجدانها الوطني.

ج ـ حملة عسكرية خائبة ضد بيزنطية

في العام ٣٣٩ شنت مقدونيا حملة عسكرية باتجاه البوسفور وهاجمت مدينة بيزنطية التي استنجدت بأثينا وصدّت الهجوم المقدوني الذي يستهدف تحصيناتها. «وتخليداً لهذا النصر (الذي عُزي الى تدخل الالهة هيكات) سك البيزنطيون نقداً

خاصاً يحمل هلالاً قمرياً هو شعار الإلهة هيكات... وهذا الشعار كان ما يزال شعبياً في بيزنطية عندما تمت إعادة بناء المدينة بعد ذلك بسبعة قرون تحت اسم القسطنطينية. هكذا وبعدما تحولت القسطنطينية الى مركز إسلامي كبير أصبح هذا الهلال القمري، شعار الإلهة هيكات القديمة، يمثل رمز السيادة العثمانية وبصورة غير مباشرة رمز الدين الاسلامي وشعاره».[٣]

د ـ اليونان تحت النير المقدوني

ونجح ديموستين في دفع بلاده لتتحد مع مدينة طيبة القوية في وجه الخطر المقدوني. وفي العام ٣٣٨ وفي مدينة كيرونه سحق الجيش المقدوني القوات المتحالفة ووضع حداً لحرية اليونان.

وبعد نصر كيرونه أصبحت المدن اليونانية تشكل عصبة بزعامة ملك مقدونيا وبقيادته العامة للجيوش في زمن الحرب. ولتصوره بأن حرباً مشتركة يمكن أن تعزز ذلك الاتحاد المفروض بالقوة، أعلن الملك فيليب عن عزمه على الثأر للهللينية التي طعنها في الماضي الفرس وعن نيته في تحرير المدن اليونانية في آسيا. ووضع تفاصيل حملة عسكرية على آسيا لكن اضطرابات عائلية، نشبت في مقدونيا اغتيل على أثرها فيليب الثاني (٣٣٦)، حالت دون ذلك.

هـ ـ الاسكندر ملك مقدونيا

الاسكندر (٣٣٦ ـ ٣٢٣) ـ هو ابن فيليب وخلفه. كان في العشرين من عمره عندما ارتقى العرش. كان يتمتع بعقل سليم في جسم سليم وكان تلميذ الفيلسوف أرسطو. وتميز بجماله وسحره وقوته البدنية وعقله المبدع وشجاعته البطولية وإيمانه بنسله الالهي. كانت سنة واحدة كافية ليثبت سلطته على مقدونيا. وما إن أعلنت مدينة طيبة اليونانية عن رغبتها في التحرر من حكمه الحديث العهد حتى احتلها بهجوم صاعق ودك معالمها وباع أهاليها. وكان هذا المثل كافياً لإخماد كل محاولة للخروج عن سلطته.

وفضلاً عن تمتعه بتلك المزايا الشخصية كانت بيده آلة حرب رهيبة. وسيتسنى لخلف فيليب كيف يعرف أن ينفذ حلم الحملة العسكرية التي أعد لها والده بأبعد مما كان مرسوماً لها.

3 A. Weigall, *Alexandre*, p. 95.

٦ ـ الهللينية والاستشراق قبل الاسكندر

يعتبر التاريخ التقليدي فتح الاسكندر للشرق الادنى نقطة انطلاق نحوهلنسة هذه المنطقة القديمة.

بيد أن الاكتشافات الحديثة تدعونا الى إعادة النظر في هذا الحكم التقليدي. وهي تشير الى أن التداخل بين الهللينية والاستشراق قد بدأ قبل الاسكندر الكبير بكثير. فالاتصالات بين اليونانيين والشرقيين كانت قديمة العهد ومتواترة. فمنذ مطلع الألف الثاني كانت تلك الاتصالات مؤمّنة بواسطة البحارة الفينيقيين والإيجيين باستمرار. وقد اقتبست الثقافة الإيجية حتى مطلع القرن الخامس الكثير عن الحضارة السامية المصرية القديمة.

لم يكن التوسع الإغريقي المقدوني غزواً مفاجئاً كتوسع الفرس قام به عرق جديد ومجهول. فعند وصول الاسكندر الى السلطة كانت آسيا الصغرى والساحل الفينيقي ومصر سائرة منذ زمن في ركاب الهللينية، حتى فارس نفسها كانت تعج بالعناصر الإغريقية.

٧ ـ الشرق القديم مدرسة اليونان

ففي آسيا كما في مصر لم يكن الأغارقة، كما رأينا، يوماً غرباء تماماً. فقد كانوا إما تجاراً أو مرتزقة أو لاجئين سياسيين أو دبلوماسيين أو أطباء أو فنانين وقد كان لهم دورهم الكبير في تطوير الأمبراطورية الفارسية. ففي مصر ومنذ أكثر من ٥٠٠ سنة كانت البلاد مشرّعة أمام التجار الأغارقة الذين أقاموا فيها مراكز تجارية. وكانت السفن التجارية الاغريقية، بأعداد متزايدة دوماً، تصعد مجرى النيل لتنطلق منه الى البحر. في حين كان الفراعنة يستخدمون المزيد من الجنود المرتزقة اليونانيين الذين كانوا يتخذون مواقع حماية لهم في المدن. وإبان ذلك الوقت كان فلاسفة وأدباء وعلماء أغارقة يحضرون للدراسة في مدارس المصريين.

«فمن هذا البلد (مصر) كان معظم اليونانيين يعتقدون أنهم أخذوا العناصر الأساسية لحضارتهم. وكانت أساطيرهم تعزو الى أناس قادمين مباشرة من مصر تأسيس بعض المدن اليونانية أمثال قدموس وداناوس وسواهما ممن مروا في فينيقيا أو كريت... وبدءاً من القرن السابع زار العديد من اليونانيين المشهورين ـ طاليس

وفيثاغوراس وصولون وأفلاطون وديموقريطس وغيرهم مصر وتأثروا بعراقة ثقافتها، وإذا جاز التعبير، كمالها. . .

إن تأثير فينيقيا على اليونان يلي مباشرة تأثير مصر. فتجار صور وصيدون الشجعان والمهرة عملوا كوسطاء لنشر الحضارة والعلم والتقنية والفن وعبادات مصر والشرق الأدنى في كل البحر المتوسط. وقد يكون الإغريق تعلموا منهم فن بناء السفن وهو فن برعوا فيه. كما أنهم علموهم أيضاً أساليب أكثر تطوراً في صناعة المعادن والأنسجة والأصبغة وأسهموا مع كريت وآسيا الصغرى في نقل الأبجدية ذات الحروف السامية إلى اليونان. . . كما أنه من بلدان الشرق الأبعد فإن بابل أعطت اليونان نظام الموازين والمكاييل والساعة الشمسية والوحدات النقدية. . . والمعلومات الفلكية ونظام الحساب السداسي للسنة والدائرة إلخ». . .[4]

إن اليونانيين بفعل إتصالاتهم بالفينيقيين وجالياتهم في آسيا الصغرى ومستعمراتهم في مصر وكريت وقبرص، ثم وخلال الحروب المادية، تمرسوا بمعرفة كل شعوب الشرق وأساليب حكمهم وهي ثمرة تجربة دهرية. ومن بين التجار اليونانيين الذين زاروا الشرق كان هناك فلاسفة ذهبوا إلى المدارس الكهنوتية لتلقي أسرار الحكمة. ومن هؤلاء ليكورج وصولون اللذان ألما بتعليم المصريين وإستخلصا منه قوانين لأثينا وإسبارطة. وفي مطلع القرن الرابع فإن أفلاطون هو أيضاً أمّ مصر ليسوّق الزيت وأقام فيها بضع سنوات وإرتاد المدارس الكهنوتية. وفي ذروة إزدهار اليونان لم يتردد أفلاطون بالإعتراف بما للشرق من دَيْن على بلاده. كما أكد أرسطو أن مصر هي أم العلوم ومهد النظم الرياضية.

4 W. Driant, *Histoire de la civilisation,* IV, p. 96, 97.

II. فتوحات الاسكندر وامبراطوريته

لم يكن يدور في خلد الإسكندر بأنه سيتمكن من إكتساح مجمل الأمبراطورية الفارسية بجيشه الصغير الذي لا يتعدى الـ٣٥,٠٠٠ رجل. فمخططه الأساسي كان يقضي بالإنتقام لإغريق أوروبا وتحرير إغريق آسيا وبناء الوحدة السياسية في العالم اليوناني ـ الإيجي وأخيراً الإستيلاء على كل واجهة أمبراطورية الفرس البحرية من البوسفور وحتى مصر والقيروان. وكان هذا القائد المقدوني يعتقد أنه بطرد الفرس من تلك السواحل يستطيع بناء إمبراطورية بحرية يونانية ـ إيجية. ولم يكن فتح سورية وفينيقيا وفلسطين ومصر يهدف إلا لقطع الطريق على إستخدام تلك السواحل كقاعدة للسفن الفارسية ـ الفينيقية. وكان في قرارة نفسه من جهة أخرى مقتنعاً بأن مصر التي كانت تغص بالمهاجرين اليونانيين، وحيث السلطة الفارسية باتت بغيضة، ستهلل لقدومه بإعتباره الإبن الإلهي لآمون.

ولم يعتمد هذا الفاتح الشاب وريث سياسة أسلافه المصريين الشرقية إخضاع آسيا إلا بعدما فتح مصر وإنتشى بالنصر وغدا فرعوناً.

١ ـ إجتياح آسيا الصغرى

أ ـ على موقع طروادة (ايليون)

عندما أبحر الإسكندر بإتجاه سواحل آسيا الصغرى، حيث كان أغارقة آسيا الصغرى يعيشون في ظل سيادة الملك الكبير، كان يغمره إعتقاد وقّاد بأنه إنما يخوض حملة مقدسة لتحقيق الوحدة الهللينية ولإنقاذ اليونان من نير الفرس. وكان يعتقد أنه كتبت له قيادة حملة هللينية جديدة تشبه الحملة التي شنها حوالي العام ١٢٠٠ آخيو اليونان على سكان طروادة وأنه سيكون بطل تلك الحملة. وكان ينوي تالياً أن يحيي على أرض آسيا دور أغاممنون ومآثر آخيل. وبعد بضعة أيام من الزحف وصل الجيش الإغريقي ـ المقدوني وقائده إلى شبه جزيرة غاليبولي ثم عبروا الدردنيل ونزلوا

في المكان إياه الذي رسا فيه قبل تسعة قرون أغامنون بسفنه. وقد زار الإسكندر المنتشي بروح الإلياذة مواقع الملحمة الهوميرية وقد تخيل نفسه يحمل قسمات آخيل سلفه البعيد، حتى لكأنه صار متعطشاً لمضارعة هذا البطل في مآتيه ولكي يصبح نداً لأنصاف الآلهة.

وبعدما زار ضريحي آخيل وأجاكس وقدم لمواطني إيليون (طروادة) عرضاً للألعاب الرياضية عاد هذا البطل المقدوني ليلتحق بجيشه وليتوجه على رأسه إلى نهر الجرانيك الذي كانت تتجمع وراءه قوات فارسية. ولم يكن داريوس الثالث ليعطي أهميّة لهذه الحملة نظراً إلى أعدادها غير الكافية لمواجهته، وكان يرى فيها مجازفة يقوم بها شاب مغامر. لذا أرسل من مدينته سوزا البعيدة أمراً إلى قواده في آسيا الصغرى يقضي بالقاء القبض على هذا الفتى الحالم والمتهور وأن يرسلوه إليه مكبلاً.

ب ـ معركة الجرانيك (٣٣٣)

كان الجيشان يبدوان متعادلي القوة. وقد كانت كتيبة كبيرة من المرتزقة الإغريق في خدمة الفرس بمن فيهم ضباط وقادة جيش. وكان الأسطول الفارسي مؤلفاً من ٤٠٠ سفينة معبأة من فينيقيا وقبرص في حين كان الأسطول المقدوني شبه غائب. وما أن تواجه الجيشان حتى ألقى الإسكندر بحميته المعهودة بنفسه على ضفة النهر وإجتازه بجيشه ودفع بقوة أول جيش فارسي التقاه وتابع تقدمه للإفادة من عنصر المفاجأة. وقد جرح مرتين غير أنه كان يقاتل بقوة وبراعة وهو يعتلي صهوة جواده بوسيفال ويزرع الموت حوله ويطارد العدو الذي بدأ يفر من ساحة المعركة. وأما المرتزقة الإغريق الذين أسروا فقد أنزل بهم الإسكندر عقاباً صارماً فأعادهم إلى مقدونيا للعمل في زراعة الحقول مقتصاً هكذا منهم لحملهم السلاح ضد بطل الوحدة الهللينية في آسيا.

«بعد معركة الجرانيك إرتفعت سمعة هذا الملك الشاب إلى مصاف المعبودين. وكان الجيش بأسره يعبده كما لم يعبد قط من قبل أي شاب آخر. وكان الجميع مستعدين للحاق به إلى أي مكان يقودهم إليه... ولا بد من الملاحظة أنه لم يحظ بذلك الإكبار إعجاباً بموهبته كقائد جيش بل إندهاشاً من أعماله البطولية».[5]

وبعدما سيطر الإسكندر على فريجيا البحرية وليديا الغنية التي رد إليها

5 A. Weigall, *Alexandre*, p. 186, 187

إمتيازاتها القديمة إرتد إلى ساحل إيجه ففتحت له مدينة أفسس عاصمة الإغريق الإيونيين أبوابها في حين أن ميليت القانعة بتبعيتها الفارسية أوصدت الأبواب في وجهه. فإيونيو ميليت آثروا التبعية للفرس البعيدين على الإندماج بإخوانهم الأوروبيين. وبعد دفاع يائس إستسلمت ميليت. كما أن هاليكارناس، بروسا الحالية، إستسلمت بعد حصار طويل. ولم تلبث المدن الواقعة على ساحل المتوسط الشرقي، وقد هالها هذا الزحف البطولي، أن إستسلمت بدورها للفاتح المقدوني.

وفي أيار ٣٣٣ صعد الإسكندر حتى أنسير (أنقره) ثم إنعطف جنوباً حيث مر في كبادوك وإجتاز نهر هاليس (كيزيل إرماك) وبلغ سلسلة جبال طوروس الكبرى وعبر ممر أبواب كيليكيا الضيق وإستولى على مدينة طارس (طرسوس).

٢ ـ معركة إيسوس (٣٣٢). فتح شمال سورية.

وخلال هذا الوقت كان داريوس الثالث، وعلى رأس جيش يفوقه عدداً وعدة، قد تقدم لملاقاة خصمه. ونزل الملك الفارسي إلى إيسوس وفي نيته أن يقطع بمناورة بارعة طرق تموين الجيش المقدوني مع الشمال. ولما رأى الإسكندر نفسه عالقاً في الفخ، حركه دافع الخطر، كما كل مرة، وإستنفر له كل شجاعته وموهبته في التحدي فقرر أن يهجم بنفسه على جناح الفرس حيث ركن الملك الكبير وأن يضع حداً للحرب بتصفية داريوس بيديه. فإنطلق على رأس مجموعة من رفاقه مخترقاً صفوف العدو تحت وابل من السهام.

ولم يكن السهل الضيق حيث تدور رحى المعركة وحيث يتواجد جيش داريوس ليسمح له بالتحرك كما يود. فإجتاز الإسكندر النهر الذي يفصله عن عدوه بعدما أصيب في جنبه وإنقض على جناح داريوس. ولما رأى هذا الأخير كبار معاونيه يتهاوون من حوله قفز إلى عربته وولّى هارباً. وما أن عرف الجيش الفارسي بفرار قائده حتى تشتت ومني بهزيمة كبرى. وقد خلّف داريوس بين يدي عدوه المنتصر عائلته بأكملها: أمه وزوجته وإبنتيه وإبنه الذين صاروا ملكاً خاصاً للإسكندر (٣٣٢).

وترك المقدونيون على أرض المعركة بضع مئات من القتلى وبضعة آلاف من الجرحى. فيما خسائر الفرس، وهي مبالغ فيها كما يبدو، فقاقت المئة ألف رجل. وبهذا النصر فتح الإسكندر أمامه طريق الشرق والجنوب. فأرسل جيشاً بقيادة

بارمينيون عن طريق وادي العاصي إلى دمشق للإستيلاء على الكنوز التي أودعها داريوس فيها.

فإحتل هذا الجيش دمشق وإستولى على ثروات الملك الكبير ومعظم نساء سادة البلاط الكبار وعائلاتهم ممن إلتجأوا إلى المدينة. وبعدما نظم البلاد التي إحتلها وإستبدل المرازبة الفرس بحكام أغارقة إتجه الفاتح الشاب نحو الجنوب.

٣ ـ إستسلام فينيقيا. حصار صور وتدميرها.

أ ـ أهمية فينيقيا بالنسبة إلى الإسكندر.

إثر نصر إيسوس كان هدف الإسكندر الأول فينيقيا. وبعد حصار صور وسقوطها الفصل الأكثر إثارة في ملحمة الفاتح المقدوني الكبير. كما أنهما يشكلان العمل الأكثر تقريراً وبتاً في فتح الشرق القاري.

فنصر إيسوس فتح الطريق أمام الإسكندر نحو فارس. وأصبح بوسعه الآن أن يبلغ وادي الفرات ويندفع في مطاردة داريوس وجيشه المحطم. وهو بإتخاذه هذا القرار كانت كل الفرص أمامه مفتوحة لبلوغ قلب الأمبراطورية الفارسية بسرعة والتخلص من الأسرة الأخمينيدية قبل أن تلتقط أنفاسها وتعيد تجميع قواتها. ولأنه إستراتيجي بارع آثر سلوك طريق الجنوب لإخضاع المدن البحرية الفينيقية وبخاصة قوة مدينة صور.

وفي ذلك العصر كانت صور عاصمة فينيقيا، هي أقوى مدينة في المتوسط الشرقي وأهم سوق في ذلك الجزء من العالم، فضلاً عن أنها مستودع كبير لثروات الهند والقاعدة البحرية للأسطول الفينيقي، الأسطول الأكبر في الشرق المتوسطي في الوقت نفسه. كانت صور قائمة على جزيرة ولم تكن بعد أي دولة قد إحتلتها عنوة قبل ذلك التاريخ. لقد حاصرها في الماضي الأشوريون (٦٧١) ونبوخذنصر (٥٧٣) من غير أن تسقط.

كانت فينيقيا، المتضامنة مع الأمبراطورية الفارسية والتي كانت تشكل مرفأها الأمامي على المتوسط والمنافسة القديمة لليونان الذين كانوا ينازعونها الهيمنة البحرية والتجارية، الحليف الطبيعي للفرس. وهذا التحالف الذي سبق وترجم في ساحات القتال خلال الحروب المادية كان ما يزال مستمراً خلال هذه الحرب التي تشنها اليونان على القارة الآسيوية. فقامت الأساطيل الفينيقية، كل أسطول بأمرة ملكه

وبقيادة ملك صيدون والأميرال الكبير للأسطول الفارسي العامة بإحتلال المياه الإقليمية اليونانية.

إن الإسكندر في الجرانيك وإيسوس كان قد ربح معركتين كبيرتين غير أنه لم يربح الحرب. بل وجد نفسه محشوراً بين فكي كماشة كبيرة. ففي الشرق، الأمبراطورية الفارسية مع مقاطعاتها ومواردها الآسيوية. وفي الغرب فينيقيا مع إمكاناتها البحرية. ناهيك بأن الأسطول الفارسي ما يزال سيد بحر إيجه وكان قسم من جيش داريوس ما يزال يخيم على شاطىء هذا البحر. وأخيراً كان لا بد للملك المقدوني أن يحسب حساب تدخل محتمل لصالح صور من جانب فينيقي قرطاجة، أميركيي العالم القديم هؤلاء، والذين كانوا، على غرار إخوانهم الشرقيين، في حرب دائمة مع أغارقة الغرب.

كان هناك إذن خياران أمام الإسكندر: فإما أن يتابع مسيرته نحو الشرق أو ينعطف نحو الجنوب. وكان على هذا الخيار أو ذاك يتوقف مصيره ومصير الشرق. نحن نعرف أنه إنقض أولاً على فينيقيا. إذ لا يُعقل أن يندفع نحو الشرق تاركاً وراءه أعداء أشداء ممن كان في وسعهم عند أية هزيمة أن يقطعوا عليه طريق العودة. من هنا آثر طريق الجنوب حتى لو ترك ذلك لداريوس فرصة إعادة تجميع جيوشه. وقد برهن نجاحه على صحة تلك الحسابات. لذا غامر البطل المقدوني في صور وإنتصر أكثر مما إنتصر على ضفاف دجلة أو في إيسوس.

ليست هذه الإعتبارات من باب الإفتراض بل إنها معروضة بوضوح في خطاب ألقاه الإسكندر على قادته ورفاقه ويورده آريان على الوجه التالي:

«أيها الأصدقاء والرفاق، إنني أرى أن حملتنا على مصر ستكون معرضة للخطر طالما أن الفرس يحتفظون بسيادتهم على البحر. ولن نجازف بملاحقة داريوس تاركين وراءنا مدينة صور غير خاضعة لنا تماماً ومُغفلين مصر وقبرص اللتين تقعان تحت الإحتلال الفارسي... ولكن إذا تمكنا من إحتلال صور عندها تصبح فينيقيا بأكملها تحت قبضتنا ويصبح الأسطول الفينيقي الذي هو الجزء الأفضل والأهم في البحرية الفارسية إلى جانبنا بلا ريب. إذ أن البحارة والمقاتلين الفينيقيين لن يجولوا في البحر ويجازفوا بحياتهم في سبيل الآخرين ما دمنا نحتل بلادهم وبيوتهم... لذا إذا أبحرنا بسفننا القادمة من مقدونيا المتحدة مع سفن الفينيقيين... فسوف نحصل على السيادة المطلقة على البحر مما يجعل حملتنا على مصر مهمة سهلة... ويصبح بمقدورنا بعدها

المضي قدماً إلى بابل دونما خشية على مصير بلادنا وفي الوقت نفسه مع شهرة متصاعدة لأننا نكون قد فصلنا كل المقاطعات المتوسطية عن أمبراطورية الفرس».[٦].

ب ـ إستسلام ماراتوس وأرواد وجبيل وصيدون.

إذن تخلى الإسكندر موقتاً عن الشرق ليتجه نحو فينيقيا. ولما وصل ماراتوس على الشاطىء تسلم رسالة من داريوس إعتبر فيها نفسه الملك الكبير، من غير أن يسبغ على الإسكندر هذا اللقب.وأصرّ في رسالته على أن يعيد الإسكندر اليه أمه وزوجته وأولاده لقاء مبلغ مالي كبير وعندها يوافق على إقامة تحالف مع الملك المقدوني.

إن هذه الرسالة المتعالية أثارت في نفس الاسكندر رداً أشد غطرسة فكتب الى ملك الفرس: «من الملك الإسكندر الى داريوس. أنت لا تعرف أن تشن الا حروباً ظالمة... هكذا أنت نفسك حاولت في الماضي على رأس جيش قوي شراء قاتل لإغتيالي بألف طالن. فأنا لا أقوم بشن حرب بل بردها... وها قد هزمتك في معركة مدروسة. وبما أنك طعنتني وطعنت قوانين الحرب فلا حق لك عندي البتة. غير أنك إذا أتيتني متوسلاً فأعدك بإعادة أمك وزوجتك وأولادك اليك من غير فدية. لأنني أعرف كيف أنتصر وفي الوقت نفسه كيف أراعي جانب المهزومين... وأعدك وعد شرف بأن سلامتك مضمونة اذا جئت فضلاً عن أنك عندما تكتب الي فلا يسهونّ أنك تكتب الى ملك ناهيك بأن هذا الملك هو ملكك».[٧]

ما أن شعرت المدن الفينيقية بعظم الكارثة الفارسية حتى فتحت أبوابها في وجه المنتصر. فبعد ماراتوس استسلمت مدينة أرواد من غير مقاومة. وأبعد منها جنوباً استسلمت بيبلوس التي كان ملكها في خدمة الملك الكبير بمجرد سماعها بزحف الإسكندر إليها. وأما مدينة صيدون فحذت حذو مدينة جبيل وفتحت أبوابها بعدما خلعت ملكها عن عرشه وقد كان غائباً ومنشغلاً في قيادة الأسطول الصيدوني العامل في خدمة ملك الفرس.

ويورد كينت كورس وديودور طرفة جرت مع الإسكندر عندما عَين ملكاً جديداً لصيدون وهي بالطبع تنم عن شخصيته وطبعه. عند استشارة إثنين من

6 Arrien, cité par Weigall, *Alexandre*, p. 239, 240.
7 Arrien, cité par Weigall, *op. cit.*, p 231

أعيان صيدا، تم الاتصال برجل يدعى عبد الاونيم، وهو يتحدر من السلالة الملكية غير أن العوز إضطره أن يعمل ليعيش. فسأله الإسكندر عند مثوله أمامه بجدية ما إذا كان قد تحمل بؤسه بصبر. فأجابه الرجل «إن شاء الله أستطيع أن أتحمل المُلْك بالروحية نفسها. فيداي كانتا تكفيان حاجتي، فلم أكن أملك شيئاً وما كان ينقصني شيء»[8]. فأعجب الاسكندر بطبعه وأمر بإعطائه الى جانب اثاث القصر الملكي الجزء الأكبر من الغنيمة التي أخذها من الفرس.

ج ـ حصار صور.

وبعدما ترك صيدون بقليل رأى الاسكندر رسل صور قادمين اليه وعلى رأسهم إبن ملك المدينة لأن الملك نفسه ويدعى أزيملكوس كان قد ذهب لخدمة ملك الفرس كقائد لأسطوله. وكان الوفد الصوري يحمل الى الإسكندر تاجاً من الذهب والعديد من الهدايا وقد وضع الصوريون أنفسهم في تصرف الاسكندر. فطلب الاسكندر منهم أن يزور مدينتهم بنفسه ليقدم ذبائح في معبد الإله ملقرت.

ولما نقل طلبه هذا الى الجمعية الوطنية الصورية أعرضت عن قبول طلب الاسكندر لئلا يفسر دخول الجنود الإغريق الى المدينة من جانب الملك الكبير عملاً عدائياً وعندها يلقي الفرس القبض على ملكهم أزيملكوس الذي يعيش بينهم.

ونظراً لمناعة صور في موقعها كجزيرة فإنها قررت ان تقاوم حتى يعمد الملك الكبير إلى إرسال نجدة عسكرية كبيرة اليها. ناهيك بأن مدينة قرطاجة إبنة صور لا بد وأن تهب للمساعدة. وقد رد الصوريون برفضهم إستقبال الاسكندر في مدينتهم متعهدين في المقابل ألا تكون موطئاً للفرس. فتملك الاسكندر غضب شديد وطرد الرسل الصوريين بعدما هددهم بأفظع إنتقام. لكنه في قرارة نفسه كان يعرف أن فتح صور لم يكن عملاً سهلاً. فصور الحصينة بحراً كانت حصينة براً أيضاً بفعل الخندق المائي الذي كان يفصلها عن البر. فقرر الاسكندر، متكلاً على حسن طالعه، أن يبني جسراً يصله بالجزيرة لأنه لم يكن يقبل بأن تتحدى تلك المدينة سلطته.

وقد شارك الاسكندر بنفسه في أعمال الردم لبناء ذلك الجسر اذ كثيراً ما كان يحمل سلال الحجارة. ولما رأى الصوريون تقدم بناء الجسر يوماً بعد يوم أرسلوا الى

8 Cité par Weigall, *op. cit.*, p. 235.

قرطاجة النساء والأولاد والمسنين ولم يبقوا سوى أصحاء البنية للدفاع عن الأسوار وقيادة ٨٣ سفينة ذات ثلاثة صفوف من المقاذيف (ديودور). وكان عمل المهاجمين يتم تحت وابل من السهام والمقذوفات يرميهم بها الصيدونيون من أعلى الأسوار. وكان غضب الاسكندر يحتدم يوماً إثر يوم وزاد من قلقه هدر الوقت، فبات أكثر تصميماً على نقل كل تجارة مدينة صور الى مكان آخر.

د ـ الإستيلاء على صور وتدميرها (٣٣٢).

وبعد سبعة أشهر من الحصار المشهود تمكن الاسكندر من إحداث فجوة في الأسوار فإندفع بكل شجاعة للدخول منها غير أن أحد معاونيه سقط الى جانبه. وإثر معركة حامية ودموية إنهارت المدينة تحت الضربات (٣٣٢).

وأما الملك أزيملكوس الذي عاد للدفاع عن مدينته فقد التجأ مع معظم قضاة المدينة والعديد من المبعوثين من قرطاجة الى معبد ملقرت. وكان الاسكندر قد أصدر أمراً يعلن بموجبه أن كل من يلجأ الى هذا المعبد يُعفى عنه إعتقاداً منه بأن هرقل (ملقرت) كان جده. بيد ان شوارع المدينة ومنازلها غدت مسرحاً لمذابح رهيبة إذ أطلق الأغارقة العنان لحقدهم القديم بشراسة ضد منافسيهم القدماء في البحر.

وقد أمر الاسكندر بشنق ألفي شاب بحسب رواية ديودور الصقلي «وأما عدد الأسرى فكان كبيراً الى درجة أنه بالرغم من إرسال معظم الأهالي الى قرطاجة فإنه لم يقل عن ١٣٠٠٠ نسمة». وأما صور التي أخليت ودمرت فقد صارت بعدها حصناً وقاعدة بحرية للمقدونيين. وصار الجسر الذي بناه الاسكندر المعبر الدائم المؤدي الى تلك القلعة وشيئاً فشيئاً تراكم الرمل على جانبيه وانتهى بتحوله الى لسان أرض عريض يشكل مع المدينة ـ الجزيرة القديمة مدينة صور الحالية.

وهكذا سقطت مدينة صور العظيمة وعاصمة فينيقيا القوية والقوة الكبرى في المتوسط الشرقي تحت حكم الاسكندر. وخلال هذا الحصار الذي دام سبعة أشهر سجل الصوريون بطولة يُشهد لها. ففاتح آسيا إستنفد كل طاقات نبوغه وشجاعته ومثابرته وبذل الكثير من جهده الشخصي حتى تمكن من إخضاع صور. ولم يجد الاسكندر سوى ٨٠ سفينة ثلاثية المقاذيف في مرافىء المدينة. فصور التي كانت في حالة سلم مع الفرس لم يكن يعوزها أسطول حربي كبير وما كان لديها من سفن كان يجوب البحر مواكباً الأسطول الفارسي. وقد إضطر الأسطول التجاري الى الابتعاد عن مرافىء المدينة ما أن بدأت الاستعدادات الأولى للحرب.

وبعد أن يصف الاستيلاء على صور ونهبها يضيف المؤرخ كينت كورس ان الصيدونيين المتحدين مع الاسكندر والملتحقين بصفوف جيشه ساعدوا إخوانهم الصوريين في هذه المحنة فأنقذوا أكثر من ١٥٠٠٠ منهم عندما أمّنوا لجوءهم الى متن سفنهم.

هـ ـ زوال صور كدولة بحرية.

ما أن فرغ الاسكندر من هدم أسوار صور وتبديد سكانها حتى أراد تفادي أن تنهض صور من جديد وتصبح قوة كبرى وسط دولة جديدة. وكإغريقي متأصل أراد كذلك وضع حدّ لمنافسة تجارية قديمة يمكن ان تشكل خطراً من جديد على البحرية الهللينية. ومن أجل إحباط أية محاولة لنهوض المدينة الفينيقية مجدداً كان لا بد من إقتلاع نفوذها السياسي وإزدهارها عن طريق انتزاع احتكار التجارة البحرية منها.

وهذه المخاوف هي التي دفعت سيد وادي النيل المقبل الى تأسيس مدينة الاسكندرية على الساحل المصري. فالقوافل المحملة بالبضائع الثمينة التي كانت لقرون عديدة تنطلق من خليج العقبة وتجتاز صحراء النقب القديمة متجهة الى صور، أصبحت تتجه بعدها الى مدينة الاسكندرية. ومع ذلك فصور التي حرمت من تجارتها البحرية سوف تنهض من جديد بفضل صناعاتها التي اشتهرت لفترة طويلة ومنها: صناعة الأرجوان والزجاج. لكن هذه الصناعات لم تستطع ان تعيد اليها نفوذها السياسي الذي اكتسبته بفضل التجارة الدولية عندما كانت مركز هذه التجارة.

و ـ مقترحات فارسية يرفضها الاسكندر.

إن زوال صور العظيمة حقق آمال الاسكندر الذي غدا الآن سيد المتوسط الشرقي. فكان مزهواً ومتحمساً الى حد لا يوصف ويتضح ذلك من رده على المقترحات التي طرحها عليه داريوس. فقد عرض الملك الكبير على محتل صور مبلغ ١٠,٠٠٠ طالن (نحو خمسين مليون فرنك ذهباً) كفدية لقاء إطلاق سراح الملكة والدته وزوجته وأولاده وتزويجه إحدى بناته مما يجعله قريبه وحليفه وأخيراً تقديم سورية وآسيا الصغرى بمثابة مهر لهذا الزواج.

وعند تداوله هذا الاقتراح مع قادته ومعاونيه لقي موافقة من كبير قادته العريقين برمينيون: لو كنت مكان الاسكندر لقبلت. فرد عليه الاسكندر ببرودة قائلاً: وأنا لو كنت برمينيون لقبلت. وأيد المجلس المجتمع بالطبع رأي الاسكندر.

وحمل الاسكندر رده الى السفراء الفرس قائلاً: بالنسبة الى الفدية فأنا لا أحتاج الى المال وعندما أحتاج اليه فسآخذه من داريوس لأن كل ما يملكه داريوس بات الآن ملكاً لي وهو حق مكتسب من الفتح. وأما بشأن زواجي من إبنة الملك فقال: بأنني لو شئت الزواج منها لما إحتجت الى إذن من والدها. وأما بشأن عرضه للأراضي فأوضح ان لا تلك الأراضي المعروضة ولا أي جزء من الأمبراطورية الفارسية يخص الملك داريوس بعد الآن لأنها صارت ملكي. وأنهى مكرراً: اذا أراد داريوس أن يعامل بمروءة فما عليه الا ان يأتي لمقابلة الاسكندر متوسلاً.[9]

إن تلك الادعاءات الطنانة التي أطلقها الاسكندر إنما كانت نوعاً ما سابقة لأوانها. فأراضي امبراطورية داريوس كانت ما تزال مترامية من الفرات حتى حدود الصين وكان بأمرته ملايين الرجال. لكن سقوط صور جعل هذا البطل المقدوني ينتشي فعلاً فصار بعد الآن لا يخشى أو يتردد لاعتقاده بأنه لا يُقهر وكان على وشك الاحتفال بعيد ميلاده الرابع والعشرين.

٤ ـ الاستيلاء على غزة واستسلام أورشليم.

أ ـ حصار غزة وإحتلالها.

وبعدما غادر الاسكندر صور اتجه نحو غزة وهي موقع فارسي محصن جدا يراقب ويشرف على مرزبة مصر.

وعندما شعر حاكم المدينة الفارسي بإقتراب الفاتح المقدوني أغلق أبواب المدينة. وكانت غزة تقع عند طرف الصحراء وعلى مسافة قصيرة من البحر وتقوم على تلة عالية ووعرة المنحدر تحيط بها أسوار منيعة. وكانت قوات فارسية وعربية تسهر على المدينة التي فيها اهراءات ملأى بالأغذية مما يؤمن لها صموداً طويلاً حتى يتمكن الملك الكبير وحاكم مصر الفارسي من الحضور لنجدتها.

وبعد شهرين ونصف من الحصار بدأ الهجوم الكبير على المدينة يقوده الاسكندر بنفسه. فأُبيد المدافعون عن المدينة حتى آخر رجل فيهم وإستولى الاغريق عليها. «وعثر في المدينة على مخازن ملأى بالبخور والمرّ، فقد كانت غزة مستودعاً عاماً لتجارة البخور العربي». وأرسل الاسكندر كمية ضخمة من هذا البخور الى معلمه السابق ليونيداس الذي بقي في مقدونيا موصياً إياه بألا يكون بخيلاً تجاه الآلهة كما

9 Weigall, *op. cit.*, p. 251, 252.

أرسل الى أمه أولمبياس وأخته كليوباترا والعديد من أصدقائه الذين لم يغادروا وطنهم القسم الأكبر من غنائم صور وغزة[10].

ب ـ استسلام أورشليم.

وبعد سقوط غزة فإن الاسكندر، كما يروي المؤرخ يوسيفوس، توجه الى اورشليم لإجبارها على الرضوخ لسلطته فاستقبله على مسافة قريبة من المدينة كبير الكهان يحيط به جمع غفير من المواطنين العُزّل فيما بدا الكهان بلباس الإحتفال الديني. ونظراً الى طبعه الروحي وخشيته المتوجسة من آلهة جميع البلدان، ربما يكون الاسكندر قد رأى في يهوه شكلاً محلياً من أشكال زوس. فدخل أورشليم، وكما قدم من قبل الذبائح لملقرت إله صور، فقد قدم الذبائح ليهوه برعاية كبير الكهان. وبعد ذلك سمح لليهود بأن يعيشوا حياتهم بحسب شرائعهم الخاصة.

٥ ـ إستسلام مصر.

وفي شهر تشرين الثاني من العام ٣٣٢ غادر الاسكندر غزة متجهاً الى مصر قاطعاً الصحراء في سبعة أيام فوصل الى أبواب مدينة بيلوز الحصينة. وكانت السلطات الفارسية قد امتنعت عن أي مقاومة بعدما هالتها أنباء صور وغزة. وما كاد الاسكندر يدخل بيلوز حتى تلقى نبأ استسلام وادي النيل (٣٣٢).

أ ـ الاسكندر يُستقبل استقبال المحررين.

وفي مصر استقبل الاسكندر كمحرر. وبدخوله توطد التحالف المصري ـ اليوناني الذي كان منذ معركة ماراتون (٤٩٠) يجمع بين البلدين ضد فارس. وقد كان الاسكندر في نظر وادي النيل سليلاً شرعياً لفراعنتها لا فاتحاً وقاهر آسيا التي كانت منذ الأزمنة التاريخية لا سيما منذ الأمبراطورية الأشورية تبدو العدوة التقليدية لمصر.

ب ـ الإسكندر فرعون مصر (٣٣٢).

وبالرغم من إقدام الاسكندر حتى الآن على إحتلال وفتح دول وممالك عديدة غير أنه لم يرضَ بقبول عرش الا في مصر. فقد بات بوسعه الآن ان يسمي نفسه فرعوناً سواء عن حق مكتسب بالفتح او عن حق ناجم بالأرث. إن ملوك الفرس

10 Weigall, *op. cit.*, p. 275.

الكبار كانوا فراعنة لمصر. وإن آمون إله سيوا، سيد مصر، كان بحسب اسطورة مسلم بها والد الاسكندر. فالإسكندر بدخوله المهيب الى ممفيس استقبل بحماسة منقطعة النظير من الجماهير المصرية. فالشعب المصري، وهو شعب متدين وروحاني بطبعه، اعتبر الاسكندر سيداً اختارته السماء ليحررهم من الفرس الكرهاء.

ان الاسكندر قد وحد وللمرة الأولى مصر واليونان تحت تاج واحد. فمفهوم الملكية العالمية الذي كان يسود منذ قرون عديدة السياسة الشرقية والتضامن الوثيق بين المصالح اليونانية والمصرية، كان يجعل مثل هذا الاتحاد بين الدولتين الكبيرتين طبيعياً. فمصر التي لم تعد مقاطعة فارسية استعادت، في ظل حكم الاسكندر، دورها كملكية سيدة.

ج ـ إنشاء مدينة الاسكندرية

منذ أن عزم الاسكندر على فتح مصر، فإن السيد الجديد للشرق كان يحلم بتأسيس مدينة إغريقية كبيرة تكون على الساحل المصري عاصمة وادي النيل. وهو بالأخص، منذ تدمير صور كان يأمل بأن يجعل هذا المرفأ الجديد على البحر أهم مركز تجاري في المتوسط الشرقي. وإن جزيرة فاروس التي ذكرته بموقع جزيرة صور أثارت إنتباهه. وتعلم من تجربة صور الى أي حدّ يمكن لجزيرة مماثلة أن تكون منيعة. غير أن فاروس لم تكن كبيرة الى حد يؤهلها لتصبح عاصمة كبرى. لذا وقع اختياره على الرقعة الساحلية الضيقة الواقعة وراء الجزيرة والتي ستصبح كاسرة أمواج لها.

وسيتم تسمية تلك المدينة الاسكندرية تيمناً بمؤسسها. وقد تم تصميمها كعاصمة عالمية كبرى. فالطرف الغربي سيكون الحي المصري والقطاع الوسطي منطقة مقدونية وإغريقية خالصة والجزء الشرقي حياً فينيقياً وسورياً. والحي الأخير استوطنه في النهاية اليهود. وإن المدينة الجديدة المحاطة بالأسوار والتي تتقاطع شوارعها بشكل متوازٍ ستشهد ولادة ميدان ومعبد ومكتبة عامة ومسرح وجامعة وملعب رياضي وقصر للعدل فيها.

وقد جرى دفن جثمان الاسكندر بعد موته في المدينة التي تحمل اسمه وظل مدفوناً فيها. ولم تقتصر شهرة المدينة هذه على كونها عالمية وتجارية بل أصبحت عاصمة الثقافة الهللينية. حتى أنها حلت محل أثينا نفسها كمركز للفكر اليوناني.

د ـ الحج الى واحة سيوا

وبعدما وضع الاسكندر تصاميم المدينة وباشر البناؤون بالعمل توجه القائد المقدوني الى واحة سيوا مركز الحج المقدس حتى بالنسبة الى الإغريق أنفسهم. وقد أدخل معبد آمون الكائن في أعماق الصحراء الغربية، برهبته وهالته المقدسة، نوعاً من الرهبة والخشوع في روع الفاتح الصوفي النزعة. فدخل بمفرده الى المعبد واستقبله أكبر الكهنة سناً، ورحب به باسم أبيه آمون. ولما سأله الاسكندر ما إذا كان أبوه آمون مستعداً لإعطائه ملك العالم، أجابه الكاهن بأنه لن يتوانى عن ذلك.

«ومنذ تلك اللحظة، أو حواليها، اعتمر قرني الكبش اللذين كانا رمزاً مميزاً للإله آمون وكان يضعهما مربوطين بالشبكة التي تلف شعر رأسه... تماماً فوق أذنيه. ومن هنا سمي في الشرق كله خلال قرون عديدة بعد عهده: بالاسكندر «ذي القرنين».[11]

٦ ـ فتح بلاد ما بين النهرين وفارس وآسيا

أ ـ هزيمة داريوس قرب نينوى (٣٣١)

وفي شهر أيار من العام ٣٣١ غادر الاسكندر ممفيس قاصداً صور، قاعدة عملياته ضد الفرس، فوجد فيها أسطوله الذي سبقه بانتظاره. ثم اتجه الى الشمال وانعطف نحو تابساك واجتاز الفرات. وكان داريوس ينتظره في أربيل بالقرب من خرائب مدينة نينوى القديمة على رأس أكثر من مليون رجل كما جاء في الروايات المتداولة أو ١٥٠,٠٠٠ رجل كما يذكر مؤرخون لا يميلون كثيراً إلى المغالاة. فيما كان جيش الاسكندر يعد أربعين الى خمسة وأربعين ألف رجل.

وكعادته دائماً بادر الاسكندر بنفسه الهجوم وقد أحاط به كبار مساعديه فاخترق جيش العدو من خلال الحرس الشخصي لداريوس وكما حصل في إيسوس تماماً التقى الخصمان وجهاً الى وجه. وما لبث داريوس أن انهزم فقفز الى حصانه وولى هارباً. وقد كلفت هذه المعركة المنتصر ٥٠٠ رجل على الأكثر والمنهزم ٤٠,٠٠٠ رجل على الأقل (٣٣١).

11 Weigall, *op. cit.*, p. 274.

ب ـ الاسكندر ملك بابل وآسيا

ودخل الاسكندر الى بابل على طرق مفروشة بالزهور. وما إن أعلن الى الشعب أنه سيعيد الى المدينة حقوقها القديمة وتقاليدها العريقة حتى هلل له الناس، كما جرى في ممفيس، واعتبروه جاء لينقذهم من براثن الفرس البغضاء. وقد أعلن الاسكندر نفسه ملكاً على بابل وآسيا وتصرف كإبن السماء الأعلى. وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره.

ج ـ خضوع بلاد سوزيان (عيلام القديمة)

وبعد بابل توجه الاسكندر الى سوزيان وهي مملكة عيلام القديمة فاستقبلته أيضاً كمحرر. فاستولى في سوزا على كنز ضخم من الذهب فضلاً عن ثروة الملك داريوس الشخصية. ثم ما لبث أن وصل واحتل برسيبوليس عاصمة بلاد فارس وإيكباتان عاصمة بلاد مادي. وقد قدر الكنزان اللذان وضع يده عليهما في سوزا وبرسيبوليس بنحو مليار ونصف مليار فرنك ذهباً.

د ـ بذخ الضباط الأغارقة ـ المقدونيين

أما وقد أصبح قادة وضباط وجنود الاسكندر بالغي الثراء فقد راحوا يصرفون المال بلا حساب. أما الاسكندر نفسه فلم يكن ينفق الكثير فوق حاجاته الشخصية. مع أن مائدته كانت دائماً عامرة غير أن مصاريف المآدب كانت تخضع لقواعد محددة بصرامة. كان الاسكندر لا يعير اهتماماً كبيراً لطعامه وكان عادة متقشفاً في لباسه. غير أنه كان بالغ السخاء مع أصدقائه. فصديقه هاجنون «كان يصر على أن تكون مسامير حذائه من الفضة الخالصة». وكانت أمه تكتب اليه: إنك توازيها بأحذية الملوك. ولم يكن أقل سخاء مع جنوده العاديين.

أما الاسكندر، وقد كان يحب الحياة المتعافية والعمل، فقد كان بالغ الجدية نظراً لصغر سنه ويحاول أن يقاوم حياة البذخ التي يحياها ضباطه الذين تحولوا الى أمراء شرقيين. وكان يردد على مسامعهم: «أبقي لكم أن تتعلموا أن أكبر مطلب بعد انتصاراتنا هو أن تتلافوا رذائل مَنْ هزمناهم ونقائصهم؟» واتخذ تدابير صارمة لإعادة المثل الأعلى القديم في البساطة العسكرية. وكان هو القدوة. إذ عندما كان في منتهى العطش لدى ملاحقته داريوس رفض تناول الماء الذي قدم اليه لأنه لم يكن ما يكفي لجميع مَنْ حوله. وكان يحاول منع قواته من الانغماس في حياة الرخاوة التي درج عليها الشرق

المترف. لكن تلك التأثيرات أخذت تستبد بأولئك الجنود.[12]

هـ ـ مشاريع فتوحات نحو الشرق

أما وقد جرفت الاسكندر دوامة الفتوحات، شأن كل الفاتحين، فلم يعد قادراً على لجم نفسه. فقد بات الآن مصمماً، كما يقول آريان، على نقل حدوده حتى أقاصي الأرض، الى أطراف هذا المحيط الخارجي الكبير (المحيط الهندي) والذي كان يعتقد عصره أنه كان يحيط بالكرة الأرضية كلها ويتصل بالمحيط الأطلسي عن طريق بحر قزوين شمالاً ووسط أفريقيا جنوباً. وهكذا يحكم على كل المساحة المأهولة بالبشر[13] وهو على هذا، يقول بلوتارك «وليقينه بأنه رسول الآلهة ليكون حكماً للجميع ولمصالحة البشر، فقد أراد أن ينظر كل البشر إلى العالم كوطن واحد».

لقد كان محاطاً في ذلك الحين بمجتمع متغاير الأعراق. فيه من المقدونيين والأغارقة والتراقيين والإليريين والفرس والمصريين والفينيقيين والسوريين والعرب. وقد كان بلاطه في إيكباتان مركز ثقافة يونانية أكثر مما كان مركز قيادة عسكرية عاماً، كان هدفه توطيد وحدة جميع شعوب الأمبراطورية. وإن فكرة الأمبراطورية العالمية هذه طغت على كل تفكيره، فلم يعد يستوعب أو يتقبل وجود معارضة لحقه الإلهي، وكان ينظر الى الشعوب الصغيرة التي كانت تشهر السلاح في وجهه في الشرق على أنها آفات ينبغي استئصالها. ووصل به الأمر الى أنه لم يعد يقيم حساباً للحياة البشرية، كما أنه لم يكن يقيم إعتباراً لحياته نفسها.

و ـ استسلام إيران

وفي العام ٣٣٠ غادر الاسكندر هيركانيا (خراسان) التي كان قد احتلها لتوه وأخضع آريانا (أفغانستان وبلوشستان) واستولى على بكتريان واندفع بجيشه حتى مرقندا (سمرقند) عاصمة سجديان (بوخارا) (٣٢٧).

ز ـ فتح الهند

وإثر معارك ضارية، كانت الأعنف في حياته العسكرية كلها، شق الاسكندر طريقاً حتى حدود بلد كشمير وبلغ الهندوس العام ٣٢٧. وعمت جنوده موجة تذمر من تلك المعارك الشرسة التي خرجوا منها بغنائم لا تذكر. وكان الاسكندر يشعر في

12 Weigall, *op. cit.*, p. 312-314 et 326-328.
13 Weigall, *op. cit*, p 340.

هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى بأن الحرب الحقيقية التي تشنها الهيلاد (اليونان) ضد الشرق قد بدأت، وهنا محك مقايسة قوى الغرب بقوى الشرق. وفي العام ٣٢١ اجتاز الاسكندر الهندوس، ولكن بدءاً من هذا التاريخ بدأت المعارك الأكثر دموية التي خاضها الفاتح الشاب في حياته.

فالراجا أو الملك الهندي بوروس كان خصماً مرهوب الجانب وجيشه كبير وقوي. وكان الاسكندر لا يقوى على مجابهة أفيال القوات الهندية بخيوله. عندها عاد ليصبح قائد حملة هللينية... وعادت أفكاره تتجه نحو أثينا المركز الروحي للأمبراطورية الإغريقية التي كان في صدد إنشائها... فصاح: «أيها الأثينيون هل يمكنكم تصور الأهوال التي أواجهها كي أستحق ثناءكم؟».[14]

وقد دامت المعركة ثماني ساعات وكان الاسكندر خلالها يمتطي جواده الشهير بوسيفال، والراجا بوروس فيله. وعندما هزم هذا الأخير كان آخر الفارين. فأعجب الاسكندر ببسالته وجاء لملاقاته سائلاً، كيف يريد أن يُعامل؟ فأجاب بوروس: كملك. فتابع الاسكندر: «ألا تريد شيئاً آخر؟ فرد بوروس: إن ما قلته يغني عن كل شيء».[15] فمحضه الاسكندر صداقته وأبقاه ملكاً على مملكته القديمة (٣٢٦).

وإثر هذا الانتصار قدم راجا كشمير خضوعه وأرسل هدايا الى الاسكندر.

لقد أُخذ الاسكندر بروعة بلاطات الهند. فقد كانت الهند منبسطة بترفها أمام عينيه. ولما اتجه بجيشه ناحية البنجاب احتل عشرات المدن قاطعاً الهند الشمالية من أقصاها الى أقصاها ولم يعد يفصله عن دلهي إلا ٤٠٠ كيلومتر.

غير أن جنوده المنهكين من المعارك كانوا في منتهى الإعياء وباتت تذمراتهم مقلقة. فمنذ سبعين يوماً ما انفكت الأمطار الغزيرة تهطل عليهم فيما هم يتوغلون كل يوم أكثر فأكثر في المجهول. وبدت مطامع الاسكندر في نظرهم لا تعرف الحدود وقد صار محظراً عليهم الإثراء من الغنائم. واستبد بهم التعب وكانوا يريدون العودة الى ديارهم.

ح - على سواحل المحيط الهندي

استبد الغضب والسخط بالاسكندر فانسحب الى خيمته وهو يستشيط غيظاً. وفي اليوم الثالث أعلن في قواته عزمه على العودة. وبعد أن زال غمه أخذ يضع

14 Weigall, *op cit.*, p. 371.
15 Weigall, *op. cit.*, p. 374.

الخطط حول كيفية النزول بالمراكب في نهر الهندوس آملاً أن يبلغ من هذه الطريق نهاية حلمه في هذا المحيط الهندي الخارجي الذي يحيط بالأرض والذي قد يشكل حدود أمبراطوريته. وبعد سبعة أشهر من الإبحار وصل بجيشه الى مصبات النهر. وما أن تراءى أمامه هذا المحيط الخارجي حتى دب الذعر في نفوس جنوده لاعتقادهم بأنه مليء بالوحوش ويسكنه الجن. ولذا عندما علق أسطول الاسكندر في ارتفاع المد أصاب جيشه هلع كبير.

وكانت تلك البلاد قاحلة. وقد استكشفها الاسكندر من كل صوب وأقام فيها محطة بحرية محصنة لاستخدامها لاحقاً في التجارة والمواصلات مع الهند. وما إن انتهى من تنظيم بلاد الهند الغربية حتى عاد عن طريق منطقة جدروسيا الموحشة بعد أن أمر أسطوله باستكشاف الساحل في اتجاه الغرب لمعرفة ما إذا كان هذا الساحل يمتد حتى جزيرة العرب ومن هناك يصل الى أفريقيا أو إذا كان يؤدي الى الخليج العربي.[16]

ط ـ عودة الاسكندر الى سوزا (٣٢٤)

وفي العام ٣٢٤ عاد الاسكندر الى سوزا فما لبث أن وافاه أسطوله الى هناك سالماً بعدما نجح في العثور على مدخل الخليج العربي. وهناك أقيمت له استقبالات مهيبة في المدن حضرها نواب الملوك والحكام والقادة الذين توافدوا من مختلف أنحاء أمبراطوريته لتهنئته على فتوحاته في الهند وتقديم الحساب اليه على إدارتهم. وقد استولى عليه مشهد جيشه الظافر وجعله يعتقد بأنه لا يُقهر. وعاودته النشوة وشعر بنفسه فوق مستوى البشر العاديين فكان يجرع من وقت إلى آخر الخمرة بشراهية وسرعة على الطريقة المقدونية إلى أن يغيب تماماً عن الوعي.

لقد كرس نفسه لإعادة تنظيم أمبراطوريته الشرقية وكأنه إله متجسد، قبل أن يشرع باحتلال ما تبقى من العالم. وقبل ذلك بخمس سنوات كان قد شكل فيلقاً من نحو ٣٠,٠٠٠ شاب شرقي من أصل نبيل مدربين ومتعلمين على الطريقة المقدونية، وهؤلاء الشبان كانوا بقيادة سلوقوس أحد أفضل قادته. وكان هناك مشروع جديد يسترعي الآن اهتمامه. فعوض أن يشرّق الأغارقة ويهلّن الشرقيين فقد أراد أن ينشىء في قلب الأراضي الفارسية أرستوقراطية جديدة من أعراق مختلطة لتلعب دور الصلة بين الشرق والغرب.

16 Weigall, *op. cit.*, 392, 393, 396.

ي ـ زيجات يونانية فارسية

ولذا فقد صرف الاسكندر أسابيع عديدة في عقد الزيجات فتزوج هو نفسه امرأتين هما ستاتيرا ابنة داريوس وبـاريزاتيس ابنة أرتحششتا الثالث. وعقد ثمانون قائداً أو مساعداً مقدونياً وإغريقياً وعشرة آلاف ضابط وجندي خطبتهم على فتيات فارسيات ثم عقدوا زواجهم في اليوم عينه. وأعطى الملك كل زوجة مهراً وأعطى زوجها كأساً ذهبيةً.

وبإقدام الاسكندر على تلك الزيجات إنما كان يفكر بالسياسة العملية. ولرغبته في الذهاب غرباً لمتابعة فتح العالم أجمع، فقد كان يرى ضرورة سياسية في ارتباط العناصر المؤثرة من مختلف الأعراق بارتباطات قرابة به وبموظفيه. فقبله كان ملوك مقدونيا يتخذون لهم دائماً كزوجات ثانويات بنات الأمراء التابعين لهم ليكتسبوا ودهم أكثر. فيما كان الاسكندر يأمل من جراء هذه الزيجات المختلطة تكوين عرق جديد ناتج عن اختلاط الأغارقة والفرس فيحافظ بهذه الطريقة على عرشه الشرقي من التمرد بعد رحيله لفتح بلاد أخرى. وإن الجيش المغادر سيترك وراءه لا عدداً كبيراً من الأطفال المختلطي العرق وحسب بل ذكرى طيبة كذلك لا يشوبها الحقد. وإن مدناً يونانية أو مختلطة عديدة تم تأسيسها وتجهيزها لهذه الغاية من الهند وحتى مصر.[١٧]

فالاسكندر المعتمر قرنيه وبعدما ثبت بهذه الوسيلة مركزه في الشرق كملك مقدونيا وسيد كل آسيا وملك بابل وفرعون مصر، أرسل معظم جيشه باتجاه أوبيس شمال بغداد المقبلة، أما هو فاتجه الى إيكباتان المقر الصيفي للملك الفارسي الكبير. ومن هناك كان ينوي النزول الى بـابل قبـل أن يمضي في رحلة للدوران حول أفريقيا.

٧ ـ وفاة الاسكندر (٣٢٣)

وفي العام ٣٢٣ كان الاسكندر قد أصبح سيد نصف الجزء الأهم من الأرض وكان لا يتعدى الثانية والثلاثين من عمره. وكان ثمة ما يعزز الاعتقاد بأنه وخلال بضع سنوات لا بد وأن يصبح سيد الأرض بأسرها. وكان كل شيء في الطريق الصحيح فالسلم ساد أرجاء أمبراطوريته الشاسعة. وأرسلت بعثة بحرية لاستكشاف

17 Weigall, *op. cit.*, p. 413-415.

سواحل بحر قزوين، كما أرسلت سفن لاستكشاف سواحل شبه الجزيرة العربية لتمهيد الطريق أمام حملة كبيرة ستدور حول أفريقيا بحراً من الشرق الى الغرب وتعود الى المتوسط عن طريق جبل طارق. وكان أسطول مؤلف من ألف سفينة حربية كبيرة يُعد في مختلف أحواض المتوسط الشرقي. وكان في نية هذا الفاتح أن يرسل هذا الأسطول لملاقاة الأسطول الآخر الذي سيعود عن طريق مضيق جبل طارق للمضي معاً باتجاه قرطاجة التي كانت في ذلك العصر أهم قوة بحرية في الغرب لاخضاعها. ولهذا الهدف بالذات كلف مهندسيه بإنشاء طريق ساحلية كبيرة تنطلق من مصر نحو العاصمة الفينيقية في أفريقيا الشمالية.[١٨]

لكن، وفي تلك السنة، بالذات (٣٢٣) وهو في عز مجده، غادر الاسكندر إيكباتان متوجهاً الى بابل. ويبدو أنه كان مزمعاً على تحويل تلك المدينة الى عاصمة لامبراطوريته الآسيوية على أن تكون الاسكندرية في مصر عاصمة لامبراطوريته الغربية ومركزاً لثقافة هللينية موحدة أهم من أثينا. وفجأة وقعت الكارثة. فالإله المتجسد قضت عليه خلال أيام معدودة حمى شديدة وتوفي عن عمر يناهز ٣٢ عاماً بعدما حَكَمَ لفترة إثنتي عشرة سنة ونصف السنة، قضى منها تسع سنوات ونصف السنة في الشرق.

18 Weigall, *op. cit.*, p. 432, 433.

III. الاسكندر الكبير وانجازاته.
تفكك أمبراطوريته واقتسامها

١ ـ شخصية الاسكندر

إن شخصية الاسكندر هي بمثل عظمة الانجازات التي خطط لها وأنجز معظمها. ونظراً الى ضخامة مآثره وخططه الكبرى فقد كان التاريخ على حق عندما أطلق عليه لقب الاسكندر الكبير. فهل كان سينجح بتحقيق حلمه في الهيمنة على العالم باحتلاله الكرة الأرضية بأسرها لو لم يعاجله الموت؟ إن ضخامة هذا المشروع تجعلنا نشك في ذلك. فهناك ما يدعو بقوة الى الاعتقاد بأن الموت لم يؤذه بل جنبه المأساة المحتومة التي قد تسببها له الخيبة فأتاح له التواري وهو في قمة قوته ومجده.

فشخصية هذا الفاتح المقدوني وطبعه ومواهبه كانت منذ القدم مدار نقاش كبير. فالجمهور الذي اعتاد التبسيط، وعلى تصنيف المشاهير الى كبار وصغار اعتبر منذ القدم وحتى اليوم البطل المقدوني الشاب نابغة عسكرياً خارقاً. إلا أن المؤرخين في جميع العصور انقسموا حول تقويمه.

«نظر اليه البعض كنابغة وأكثر من نابغة، كشخص تفوق قدرته قدرة البشر تقريباً... واعتبر آخرون أنه مسيّر رجال مغامر، لا يردعه رادع وجدان جرفه سيل الأحداث وارتفع الى مراتب عليا بفعل الحظ أو ما أشبه (المصادفة مثلاً). كما أن آخرين رأوا فيه ذلك المثالي الذي ينتقل من نصر الى نصر سعياً وراء ما كان يعتقد أنه في صالح الإنسانية. وأخيراً هناك من قال ان دوافعه كانت بحت أنانية وان المحرك اليها كان التعطش الى المجد والسلطة الشخصية».[١٩]

وبرغم تنوع هذه الآراء لا بد من الاعتراف مع ويجال بان الاسكندر: «قد غيّر

19 Weigall, *op. cit.*, p. 9 et 10.

وجه العالمين الاغريقي والفارسي لخيرهما أو لشرهما، وأنه لدى موته كان يمتلك سلطة لم يصل الى مثلها أي بشري في العصور القديمة، وأن ما من رجل في التاريخ كله، باستثناء بعض مؤسسي الديانات، سلم هذا العدد الكبير من الناس بأنه فائق الطبيعة». (٢٠)

أ ـ صاحب رسالة وبطل.

لم يكن الاسكندر فاتحاً مثل سائر الفاتحين. فهو عندما انطلق الى فتح آسيا لم يكن يبغي البتة ضم مساحات جديدة الى وطنه مقدونيا. فلقد كان حالماً وروحانياً، اذ كان يحلم بتأسيس امبراطورية كبرى في آسيا وكان يعتبر نفسه إبن الآلهة وأداتها في سبيل تنفيذ تلك الرسالة. فقبل ان يغادر مقدونيا وزع تقريباً كل ثروته وأمواله الخاصة وكذلك أراضيه وأملاكه. فهو إذن كان يمضي لا يحدوه أمل بالعودة، كجندي مرتجل او ككاهن مرسل أودع مصيره تحت رحمة السماء وحدها.

لقد كان الاسكندر بطلاً أكثر مما كان مخططاً حربياً. فانتصاراته جاءت من المزايا التي يتحلى بها جيشه وبالأخص من شجاعته وإقدامه على اتخاذ المبادرة وجسارته الفائقة ووحدة الهدف. فهو لم يحاول أبداً مباغتة العدو في هجوم ليلي. وقد أجاب مرة على بارمينيون بقوله: «أنا لا أسرق النصر بل آخذه غلاباً وفي وضح النهار وليس بالخداع».

ب ـ القائد والمنظم.

لقد كان هذا البطل قائداً بطبعه فضلاً عن كونه منظماً. فشخصيته الآسرة وإطلالته المهيبة وسخاؤه وشبابه واندفاعه في العمل الشاق، كلها صفات تؤهله لقيادة الناس وجعلهم ينصاعون لأمره. فقيادة جيش زاحف وفي الوقت نفسه حكم الأراضي المحتلة كان يتطلب مواهب كبيرة في الادارة والتنظيم، خصوصاً وأنه كان يجب ان يعمل كل شيء بنفسه معتقداً انه، وهو رجل مصير، على كاهله يقع وزر عالم هو في طور التكوين.

ج ـ الروحاني في قرارة نفسه.

كان الاسكندر روحانياً ومقتنعاً جدياً برسالته الالهية. فأمه أولمبياس كانت تؤكد له على الدوام ان آمون إله سيوا وسيد مصر هو والده الحقيقي. وإثر احتلال

20 Weigall, *op. cit.*, p. 10.

وادي النيل أصبح، بصفته فرعوناً، إلهاً على الأرض. وحول بنوته الالهية، لم يدر يوماً في خلده أنها تعود الى فكرة سياسية بل كان مقتنعاً تماماً بها. وإن المؤرخين وكتّاب السِيَر الذين أرادوا رد ادعائه بالألوهة الى مجرد مناورة سياسية إنما استقوا حجتهم هذه من اعتبارات معاصرة، أي إنها مغالطة تاريخية. ففي أزمنة تعدد الآلهة التي كان يعيش فيها «فأن يكون المرء إلهاً على الأرض يعني تفوقه في العظمة الدنيوية». فأرسطو كان يقول مثلاً: «إن أي رجل متفوق في نبوغه بلا مضاهاة، على سائر البشر إنما يعتبر إلهاً بين البشر». ألم يكن برسيوس وهرقل وآخيل ممن يعدون من أجداد الاسكندر، أبناء الإلهين زوس ونيري، وأميرتين بشريتين؟ وحتى في الأزمنة اللاحقة الأكثر حكمة أفلم يكن يوليوس قيصر إبن الإله أبولون؟

وهكذا إذن فلم يكن من العجيب ان يقتنع الاسكندر بأنه إبن إله في عصر لم تكن بعد الطبيعة الالهية، تلك التي ولدتها لاحقاً فكرة التوحيد الإلهي. وإن هذا الايقان إنما عززته بشكل خاص انتصاراته الساحقة. فالإسكندر كان بالغ الاقتناع بأن أباه هو زوس ـ آمون الى حد أنه وبعد وقت قصير من حجه الى واحة سيوا فإنه اعتمر قرني الكبش اللذين كانا الشعار المميز لهذا الإله.

فهذا هو الصانع الذي في وهج شبابه وخلال بضع سنوات «صنع تقريباً العالم وفق الحلم الذي تصوره». وفي ما يلي عرض لمنجزاته.

٢ ـ منجزات الاسكندر الكبير. وحدة عالم الشرق الأدنى الثقافية.

يسجل احتلال الاسكندر للشرق الأدنى مرحلة تاريخية كبيرة ومنعطفاً حاسماً في تاريخ هذه المنطقة القديمة. ففي حين كانت فارس وبابل ومصر وفينيقيا تتداعى سياسياً كان مفهوم الحياة نفسها يتبدل في كل الشرق الأدنى. وإن كل شيء سيتغير وإلى قرون عديدة في هذه المنطقة الواسعة التي أخضعها البطل المقدوني لنفوذه. ذلك أن عالماً شرقياً جديداً قد تم تشكيله. «إنه عالم موسع تشعر آسيا وأوروبا وأفريقيا فيه أنها شريكات وحيث الانسان يتسع أفقه، والتجارة تتدوّل وحيث يتم جمع... بقايا كل الحضارات المنهارة: نينوى، بابل، مصر، ليديا، فارس، وهي مواد أو عناصر غير متجانسة تجمعها الهللينية التي كان ينتشر فكرها ولغتها في كل مكان... ان تلك لم تكن امبراطورية بالمعنى السياسي للكلمة بل نوعاً من أنواع الحضارة، تلك هي الأمبراطورية الهللينيستية».[٢١]

21 Daniel-Rops, *op. cit.*, p. 365, 366.

إن شخصية الاسكندر الخارقة سادت تطور الانسانية الشرقية حتى الفتح الروماني. وإذا كان قد أوصل المدينة الاغريقية ومؤسساتها الغارقة في القدم الى الدمار الشامل الا أنه، تعويضاً للأغارقة عن حرياتهم التي خسروها، فتح أمامهم مجالاً رحباً. وإذ كان قد هدم الأمبراطوريات الشرقية القديمة فهو في المقابل قد حرّك هلينة الشرق. وإن فكرته الأساسية القائمة على دمج الغرب بالشرق قد تحققت الى حدّ كبير. وهو بإجباره ملايين الناس من مختلف الأعراق واللغات والأديان على العيش في نوع من وحدة المصالح المادية وتقبل الأفكار الدينية ذاتها وعلى فهم لغة واحدة وفن واحد فقد أرسى أسس الأمة العالمية الواحدة ومفهوم «العالم المأهول» المدرك ككل لا يتجزأ.

فالإسكندر أحلّ وحدة عالم الشرق الأدنى الثقافية محل الاتحاد الشرقي أي الوحدة السياسية والإدارية التي شكلها النظام الفارسي المتسامح. فكان من نتائج عمله هذا جمع العناصر والثقافات الأكثر تنوعاً وصهرها في بوتقة واسعة واحدة، بحيث عجنها وخلطها بيده القوية وأعطاها كعامل توحيد لها، رابطاً معنوياً هو اللغة والثقافة المشتركتان.

أ ـ الضم المادي والمعنوي.

لقد رأينا في ما سبق ان العلاقات بين الاغريق والشرقيين كانت سابقة عهد الاسكندر، وان الهللينيين لم يكونوا غرباء كلياً في آسيا أو مصر. ومنذ فتوحات الاسكندر، تعاظم النفوذ الاغريقي في العالم الشرقي. وقد استوحت الازياء والعادات من الأغارقة. كما أن اللغة اليونانية ما لبثت ان شاعت على حساب اللغات المحلية. وعلى الساحل، أخذت اللغة الفينيقية تغيب شيئاً فشيئاً عن النقوش.

فالاسكندر حرص حرصاً بالغاً على تحقيق الضم المادي والمعنوي لتلك الأراضي الآسيوية الشاسعة والمتباينة. وهو بدمجه الشعوب المحلية مع المستوطنات الهللينية المستقرة في النقاط الاستراتيجية والتجارية الأساسية في الشرق، إنما كان يأمل بتحويل التأثير السطحي الى تأثير عميق وثابت وتحويل العالم الشرقي الى حضارة جديدة متولدة من اتصال تلك الأعراق المختلفة.

ب ـ إقتصاد وحضارة عالميان

إن امبراطورية الاسكندر الواسعة كانت ستجعل من الممكن تنظيم اقتصاد

عالمي متمحور على المتوسط الشرقي. فنحو هذا الحوض البحري تتجه بالفعل كل طرق العبور الكبرى. فبحر إيجه والبحر الأسود يجعلانه يتصل بأوروبا. ومن البحر الأحمر تصل منتجات أفريقيا وبلاد العرب والهند، في حين أن الموانىء الفينيقية تصل البحر المتوسط بآسيا الوسطى والصين بواسطة طرق القوافل المتوغلة شرقاً.

فالطرق الاقتصادية الدولية هي أساس هذه الامبراطورية العالمية وهي منظمة حول مراكز مدينية. وستُنشأ عشرات المدن على غرار الاسكندرية: أولاها اسكندرية مصر التي ستكون سيدة اقتصاد العالم، فيما ستعزز الزراعة التي هي أساس كل اقتصاد راسخ. وستنتهج سياسة تحسين الأراضي من قاعدة تحطيم الأطر الاقطاعية لنشر المبدأ الاقتصادي القائل: بالزراعة من أجل البيع. وستعطى الحرية الى المزارعين. وستتجه النزعات السياسية والاجتماعية في الأمبراطورية نحو البحر الذي سيصبح نقطة الجذب.

إن سياسة المواطنية العالمية الأمبراطورية هذه شجعت مزج الأعراق في محاولة لطمس المشاعر القومية. فالتجارة سبق لها أن جعلت من اللغة اليونانية لغة دولية في مصر وآسيا الصغرى. وقد جعل الاسكندر منها اللغة الرسمية للأمبراطورية، وهذه اللغة ستدخل مع الجنود والمستوطنين والتجار الاغارقة حتى آسيا الوسطى. وفي حين كانت النظرية المصرية حول الملكية بحقها الإلهي منتشرة في العالم الإغريقي، كانت المفاهيم الفلسفية اليونانية تروج بسرعة في كل الشرق المتوسطي. والثقافة اليونانية التي مضت لغزو العالم كانت تتأهب لتغدو الرابط المعنوي الذي سيوحد الشعوب المتوسطية في حضارة واحدة. ومع أرسطو ظهرت الفكرة الواقعية للعصر الهللينيستي، وسينفصل العلم عن الدين.

ج ـ إندماج الشرق بالغرب

إن فكرة الاسكندر الأساسية وهي دمج الشرق بالغرب والتي استهل بها حياته لم تتحقق الا بعد وفاته. وان نشر عملة واحدة سيعطي المناطق المحتلة مظهر وحدة. لقد أراد الاسكندر ان يتيقن من إمكانية مزج الأعراق، ولذا شجع على الزواج بين المقدونيين والنساء الآسيويات وأسس في كل مكان مراكز للهللينية. والإسكندر، يقول بلوتارك، «أسس أكثر من سبعين مدينة وسط البرابرة ونثر المؤسسات اليونانية في كل أنحاء آسيا».

وفي عملية تسريع لتوحيد ممتلكاته الشاسعة، لجأ الاسكندر الى جميع الوسائل:

تجديد طرق الزراعة قديمة العهد، زراعة الأشجار، إقامة القلاع لحماية حركة المرور البري، إصلاح قنوات ري كانت قد أصبحت غير صالحة للاستخدام، تحسين مجاري الأنهار، والري؛ وبإختصار فإنه ساعد على تطور الازدهار. لكن الوسيلة الأعز على قلبه كانت نشر اللغة اليونانية والفن اليوناني بإعتبارهما يستهويان النخبة وإن لم يستهويا السكان الأصليين كافة. وقد تكرست مبادرته هذه تكريساً ساطعاً إثر موته.

وإذا كان الوقت لم يتسع لهذا الرائد فإن الآراء تجمع على أن عهد الاسكندر القصير دشن عصراً جديداً في تاريخ العالم. فالحضارة الهللينية التي أسهم في تأسيسها سترسي جذورها وتعطي ثمارها في عهد خلفائه.

٣ ـ أمبراطورية الاسكندر حتى اقتسامها النهائي. لمحة تاريخية ٣٢٣ ـ ٢٧٥

بين موت الإسكندر والإقتسام النهائي لأمبراطوريته تمتد مرحلة تناهز نصف القرن تقريباً (٣٢٣ ـ ٢٧٥) مليئة بالإضطرابات والحروب ومتميزة بفقدان الاستقرار العام في جميع انحاء الشرق الأدنى.

فخلال تلك الفترة المضطربة والانتقالية، نشأ سير جديد للأحداث سيؤدي الى اقتسام أمبراطورية الإسكندر التي سيتشكل بضع ممالك مستقلة من بقاياها. فمنذ العام ٣٠٠ بدأ الشرق الأدنى يستعيد، مع وجود حضارة وطبقة حاكمة اغريقية ـ مقدونية، الشكل السياسي الذي كان عليه قبل توسع الاسكندر. وفي العام ٢٧٥ فإن مصر والأمبراطورية الفارسية القديمة واليونان أو بكلمة أخرى الشرق الأدنى الافريقي والآسيوي والأوروبي، وتحت حكم ثلاث سلالات ملكية حاكمة يتحدر كل منها من أحد قادة جيوش الاسكندر، سينطلق كل واحد في إتجاهه نحو مصيره الجديد.

أ ـ خلافة الإسكندر. القائد برديكاس وصي على الأمبراطورية.

إن الاسكندر، إذا جاز التعبير، لم يتحسب على غرار الرسول العربي الكريم محمدﷺ لشيء حول خلافته. ولعله لم يفصح عن رغباته الأخيرة الى مَنْ حَوله بسبب عجزه عن النطق خلال ايام مرضه الأخيرة، التي سبقت الوفاة.

وأمام هذا الوضع تنادى أصحاب الفاتح الكبير من قادة جيشه، كما فعل بعد ذلك صحابة النبي العربي الكريمﷺ، وشكلوا مجلس دولة وأعلنوا تعيين ملكين معاً

هما فيليب الثالث وهو أخ غير شقيق للإسكندر وكان يلقب بالغبي وإبنه الاسكندر الرابع الذي ولد له من روكسان. وحرصاً على وحدة هـذه الأمبراطـورية ذات الرأسين أخضع هذان الملكان العاجزان لنوع من الوصاية قضت بتعيين قائد الجيش برديكاس (٣٢٣ ـ ٣٢١) وصياً. وقد حمل مع الوصاية على العرش لقب شيليارك ومنح صلاحيات مدنية وعسكرية مطلقة.

ب ـ حكام المقاطعات

لقد أوجبت المساحة الشاسعة للأمبراطورية تقسيمها الى وحدات إدارية كبيرة عهد أمر إدارتها الى قادة قادرين ومسؤولين. وقد عين بطليموس إبن لاغوس حاكماً على مصر وانتيغون الأعور حاكماً على فريجيا الكبرى وليزيماك حاكماً على تراقيا وبيتون حاكماً على مادي واومـين حاكـماً على الكبـادوك وليونـاتوس حـاكماً عـلى ضفاف الهلليسبونت أو المضائق (البوسفور والدردنيل). وأما سوريـة فكانت من نصيب لاوميدون الذي كان يتقن الأرامية وهي اللغة المتداولة في تلك البلاد. وقد احتفظ القائد سلوقوس بقيادة الخيالة.

ج ـ قمع تمرد في أثينا (٣٢٢)

وفي حين كان الهدوء يسود آسيا بعد موت الفاتح الكبير المفاجىء، كان الأمر على عكس ذلك في اليونان. فما أن بلغها نبأ وفاته حتى إندلعت حركات التمرد وبخاصة في أثينا حيث عاد ديموستين الذي نفي في عهد الاسكندر إليها منتصراً.

وفي العام ٣٢٢ أخمد هذا التمرد وهزمت أثينا في معركة كبرى وأجبرت على قبول الإستسلام بشروط قاسية. وفقدت تفوقها البحري وعظمتها السياسية، فيما إنتحر ديموستين بتناوله جرعة من السم.

د ـ تنافس بين حكام المقاطعات. مقتل برديكاس.

كانت المطامع والمنافسات بين الحكام العامين تدفعهم دوماً إلى التنازع فيما بينهم ليمـد كل منهم سلطتـه على حسـاب الآخر. ومن هنـا نشبت صراعـات وإقتسامات متتالية كان من شأنها وضع مناطق متكاملة بين أيدٍ مختلفة، وتحطيم تلك الوحدة التي كان الإسكندر يحرص على تحقيقها. وفي العام ٣٢١ قام تحالف بالتكتل حول بطليموس ضد برديكاس الوصي على الأمبراطورية. فسلم برديكاس آسيا إلى أومين وزحف الى مصر، غير أنه اغتيل في بيلوز بتحريض من القائد سلوقوس.

هـ ـ وصاية أنتيباتروس (٣٢١ ـ ٣١٩).

أنتيباتروس (٣٢١ ـ ٣١٩) كان كبير السن، خلف برديكاس في الوصاية على الأمبراطورية. وجرى تقسيم جديد بين المتحالفين المنتصرين حيث تلقى سلوقوس بلاد بابل وعززت سلطات أنتيغون.

و ـ وصاية بوليبركون. تمرد كاسندر

في العام ٣١٩ توفي أنتيباتروس بعد تقدمه في السن وعيّن قائد الجيش بوليبركون (٣١٩ ـ ٣٠١) خلفاً له. فرأى كاسندر إبن أنتيباتروس نفسه مغبوناً بهذا التعيين فعمد إلى التحالف مع انتيغون وبطليموس لإعادة إحتلال شبه الجزيرة الهللينية. فما كان من بوليبركون ولتعزيز سلطته وإعتباره، إلا أن أرسل في طلب الملكة أولمبياس أم الإسكندر الكبير من أبيروس. وما أن عادت الملكة ـ الأم إلى مقدونيا حتى أمرت بقتل الملك السفاح (غير الشرعي) فيليب. فقرر كاسندر الإنتقام من هذا العمل بالدخول إلى مقدونيا، فاستولى على بيدنا وأمر بإعدام الملكة ـ الأم وأمن الحماية للملكة روكسان وابنها الملك الصغير. ثم لجأ بوليبركون إلى البيلوبونيز.

ز ـ أنتيغون سيد آسيا.

أما أومين حليف بوليبركون فقد هزم في آسيا على يد أنتيغون الذي كان يحاول إنتزاع مقاطعته منه. وبعدما حوصر أومين في بابل سلمه جنوده إلى أنتيغون الذي أمر بإعدامه (٣١٦). في حين لجأ سلوقوس حليف أومين إلى بطليموس في مصر.

هذه الإنتصارات التي جعلت من أنتيغون الشخصية الأقوى في الأمبراطورية أثارت عليه حفيظة كاسندر وليزيماك وبطليموس وسلوقوس (٣١٥ ـ ٣١١). ولما كان أنتيغون عازماً على إعادة وحدة المقاطعات الإيجية تحت سلطته فقد قام بضم ساحل آسيا الصغرى. وبعدما شعر كاسندر بأنه مهدد في اليونان تصالح مع بوليبركون الوصي على العرش.

وفيما كان يحاول انتيغون الدخول إلى أوروبا حال هجوم شنه عليه أخصامه دون دخوله: إذ إنتزع منه بطليموس سورية الجنوبية فيما إستعاد سلوقوس بابل.

وفي العام ٣١١ جرت على أثر هدنة، عملية إقتسام نال على أساسها كاسندر اليونان فيما حصل ليزيماك على تراقيا وبطليموس على مصر وأنتيغون على آسيا ويبدو أن سلوقوس إستبعد عن هذه التسوية.

ح ـ أنتيغون وإبنه ديمتريوس سيدا اليونان

وفي العام ٣١٠ أمر كاسندر بإغتيال الملكة روكسان وإبنها. وفي العام ٣٠٩ امر بقتل الدُعي الأخير وأخت الفاتح الكبير فلم يبقَ من أسرة الإسكندر أحد، وبالتالي أي وريث شرعي. كما أن هدنة العام ٣١١ خرقها بطليموس بعدما حوّل مصر إلى قوة بحرية وطمع في إحتلال إيجه حيث سبق لأسطوله أن ظهر بضع مرات فيها (٣٠٩ ـ ٣٠٨). وسرعان ما أيقظ هذا الإعتداء أنتيغون من غفلته فإنتفض وإندلعت الحرب من جديد بين حكام المقاطعات.

وفي العام ٣٠٧ راودت أنتيغون فكرة استعادة أوروبا مجدداً فأوكل الامر إلى إبنه ديمتريوس. وكان هذا الأخير بالغ الطموح ويتحلى بصفات عسكرية خارقة فقام بإنزال في اليونان وإستولى على أثينا التي إستقبلته كمحرر. وأما بطليموس الذي أغاظه تدخل ديمتريوس فقد أرسل أسطولاً مصرياً سحقه ديمتريوس في سالامين في قبرص. وعلى أثر هذا النصر إتخذ لنفسه لقب ملك ومنحه لإبنه ووريثه ديمتريوس (٣٠٦). وحتى لا يكون أفضل منهم، عمد بطليموس وكاسندر وليزيماك إلى إعلان أنفسهم ملوكاً بدورهم (٣٠٥).

ط ـ معركة إيبسوس. إندحار أنتيغون وموته (٣٠١)

بعدما وقف ديمتريوس في وجه كاسندر وبوليبركون في اليونان بدأ في العام ٣٠٣ سياسة إتحادية إستمال فيها المدن الهللينية إلى جانب قضيته. ولما دعاه والده أنتيغون إلى آسيا حيث هاجمه فيها ليزيماك وبطليموس وسلوقوس، هبّ الإبن إلى نجدة والده فشارك في معركة إيبسوس الكبرى في فريجيا الوسطى (٣٠١) .غير أنه لم يُكتب لهما النصر في تلك المعركة فانتحر الوالد وولى ديمتريوس هارباً.

وقد أدّى إنتصار إيبسوس إلى إقتسام جديد بين المتحالفين حيث حصل ليزيماك على الكبادوك وآسيا الصغرى الوسطى والغربية. وتسلم سلوقوس أرمينيا وسورية وبقي كاسندر في اليونان وبطليموس في مصر. بيد أن سلوقوس الذي كان يطمح في سورية الجنوبية التي منحت لبطليموس، وليزيماك الذي كان يسعى إلى توسيع ممتلكاته، لم يكونا راضيين. ومن جهة أخرى فإن ديمتريوس الذي كان يحتفظ بأسطوله وبالعديد من قلاعه كان يمثل قوة لا يستهان بها ولم يكن بعد قد سلم بالهزيمة.

ي ـ هزيمة ديمتريوس وموته (٢٨٣)

إن التحالفات التي قامت بين بعض الفرقاء أنشأت توازناً سياسياً جديداً. وإن الإتفاق بين بطليموس وليزيماك دفع سلوقوس إلى التقرّب من ديمتريوس حيث تزوج من إبنته ستراتونيس (٢٩٩). وفي العام ٢٩٧ توفي كاسندر. فأفاد ديمتريوس من غيابه ليتحول إلى اليونان فإحتل أثينا بعد سنتين من المعارك (٢٩٦ ـ ٢٩٤) لكنه خسر كل ما تبقى له في آسيا. وحوالي العام ٢٨٩ غدا سيد اليونان الأوروبية وبدأ يتأهب لغزو آسيا.

وما عتمت قوته التي أعاد تكوينها أن أثارت ضده مجدداً تحالفاً جديداً مؤلفاً من ليزيماك وبطليموس وسلوقوس وبيرهوس ملك إبيروس. ولما تكاثر أعداؤه تمكنوا من إلقاء القبض عليه في كيليكيا وتوفي إثر ذلك العام ٢٨٣.

ك ـ هزيمة ليزيماك وموته (٢٨١)

جمع ليزيماك تحت سلطته المناطق الإيجية. وباستثناء بيزنطية فإن كل المدن الإغريقية في تراقيا والبروبونديت وسواحل آسيا الصغرى رضخت لسلطته. ثم طرد بيرهوس من اليونان وأخضع شبه الجزيرة الهللينية. لكن مدن آسيا الصغرى التي رزحت تحت الضرائب إستغاثت بسلوقوس فهُزم ليزيماك وقتل (٢٨١).

ل ـ سلوقوس سيد آسيا، يقتل العام ٢٨٠.

أما المنتصر سلوقوس والذي كانت سلطته تمتد من هضاب إيران حتى ساحل سورية الشمالية فقد ضم إلى أراضيه ممتلكات ليزيماك في آسيا الصغرى. فزاد على جيشه جيش خصمه المهزوم وأعلن نفسه ملكاً على مقدونيا وراح يستعد للتوجه إلى اليونان الأوروبية. لكنه إغتيل على يد بطليموس كيرونوس إبن ملك مصر وهو كان إلتجأ عند ضحيته بعدما حرمه والده من الميراث. ويموت سلوقوس زال آخر الخلفاء المباشرين للإسكندر (٢٨٠).

م ـ انتيغون جوناتاس، سيد اليونان

لم يكن انتيغون جوناتاس، إبن ديمتريوس، يحتفظ من إرث أبيه بأكثر من بعض القلاع. وفي العام ٢٧٩ أنهى الحرب التي كانت ناشبة بينه وبين أنطيوخس إبن سلوقوس وعقد صلحاً معه وتزوج من أخته. فتخلى أنطيوخس له عن مطامعه في مقدونيا ووعده انتيغون في المقابل بألا يتدخل في شؤون آسيا. وفي العام ٢٧٧

عاد انتيغون إلى شبه جزيرة اليونان حيث صدّ عنها غزواً شنه البرابرة. وإن دور المنقذ هذا، الذي لعبت فيه المصادفة، مكنه من السير قدماً إلى مقدونيا والإستيلاء عليها.

ن ـ تمزق أمبراطورية الإسكندر وتجزئتها النهائية (٢٧٥)

وفي العام ٢٧٥ كانت ثلاث سلالات ملكية متحدرة من ثلاثة قواد من جيش الإسكندر مثبتة أقدامها بقوة وبوضع مستقل على الأراضي الواسعة التي وحدها الفاتح المقدوني وهي: سلالة السلوقيين ويحكمون آسيا، واللاجيديين مصر، والانتيغونيين اليونان.

«وهذه المرة بان الوضع وللمرة الأولى منذ أكثر من خمسين سنة واضحاً أمام أعين المعاصرين. فمع بطليموس في مصر وأنطيوخس في سورية وانتيغون في اليونان أخذ العالم الصورة التي سيحتفظ بها لأكثر من قرن. وبالطبع لم تكن الصراعات قد حطت أوزارها ولم تكن أسباب النزاعات بين الدول أقل من الماضي بين المدن. فمثلاً سورية ظلت محط طمع دائم سواء من جانب ملوك مصر أو ملوك آسيا كما أن المضائق الشمالية سوف تكون مراراً موضوع نزاع بين ملوك مقدونيا وآسيا فضلاً عن سيادة إيجه التي ستثير بين ورثة الاسكندر الكبير نزاعات لا تنتهي... إنما وبدءاً من التاريخ الذي صارت فيه السلالات الملكية الثلاث: الأنتيغونيون ورثة أرجيادس والسلوقيون ورثة الأخمينيديين واللاجيديون ورثة الفراعنة تتحكم بمصائر العالم القديم، فإن عهداً جديداً قد بدأ. فآخر ذكريات أمبراطورية الإسكندر قد ولّت. وإن اليونان وآسيا الأمامية ومصر، وحيث لا تبدو الحضارة واحدة إلا من حيث أصولها الهللينية، راحت هذه البلدان تتطور بإتجاهات مختلفة وأحياناً تتصادم بعنف»[٢٢].

س ـ سرعة إنهيار إنجاز الإسكندر السياسي.

إن أمبراطورية الإسكندر، التي إتسمت بسرعة إنهيار الأمبراطوريات السابقة من أشورية وكلدانية وفارسية يبدو أنها لم تعمر أكثر من تلك الأمبراطوريات بل كانت أقصر عمراً منها. فالوحدة الفعلية للأمبراطورية اليونانية ـ المقدونية لم تعمر بعد موت مؤسسها. وإذا كانت قد إستمرت رسمياً حتى العام ٢٧٥ فما ذلك إلا تحت

22 R. Cohen, *La Grèce et l'hellénisation du monde antique*, p. 458, 459.

غطاء ملكية صورية أو محض إسمية. فمنذ وفاة الإسكندر تجزأ الشرق الأدنى من جديد. واستعادت كل من مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين وفارس وآسيا الصغرى واليونان السياسة التقليدية التي كانت تتبعها في العصور السابقة وإستأنفت تنافسها القديم مع بعضها.

«إنه لغريب أن تستحوذ فكرة التجمعات السياسية الكبرى على مخيلة الناس وتسحرها ولكن مع الأسف فإن تلك الإنشاءات الضخمة ما أن تجد بنّاء لها حتى تنهار، إذ هي لا تقوى على الصمود طويلاً... ويكفي أن نتأمل... في تاريخ مصر الذي يبلغ عمره ٣ آلاف سنة... حتى يحق لنا أن نتساءل ما إذا كانت تلك المنجزات الكبرى التي تهز النفس كثيراً تناقض سُنّة طبيعية ما تعمل في الخفاء للقضاء عليها.

كان الإسكندر واحداً من هؤلاء الذين جمعوا التباينات ولعله ألمعهم وأكثرهم فتنة... ولئن كان عمله الثقافي قد شهد إمتدادات خارقة، غير أن بناءه السياسي لم يصمد إثر وفاته... فالمغامرة الإسكندرية لم تُفضِ سياسياً إلا إلى تدمير الصرح الفارسي الكبير وعودة تلك «الأمم الطبيعية» التي دمجها قورش وداريوس موقتاً في وحدة كبيرة... وإن نزاعات الحكام، بعيداً عن إطار الصراعات الشخصية، تتحول بشكل لا شعوري إلى صدامات تتناول المصالح العامة وتجد معها بلدان مثل اليونان وآسيا الصغرى وإيران وبابل ومصر أنفسها أمام المشاكل القديمة إياها التي تستلزم الحلول والمسائل نفسها التي جعلت في الماضي الحثيين والرعمسيسيين والميسينيين والبابليين يتخاصمون»[٢٣].

إن هشاشة المنشآت الأمبراطورية السياسية في الشرق الأدنى، يبدو أنها خاضعة لثابتة أو سنّة تاريخية تتحكّم بها. وهذه الثابتة تؤكدها هشاشة وظرفية كل أمبراطوريات أو دول الشرق الأدنى التي يمنعها تغاير مناطقها وشعوبها من التجمع طوعاً تحت سلطة حكم مركزي واحد. وقد درسنا في مجلدنا الأول الأسباب العامة والدائمة التي تحدد هذه الثابتة التاريخية في الشرق الأدنى.

23 De Laplante, *op. cit.*, p. 135, 136.